

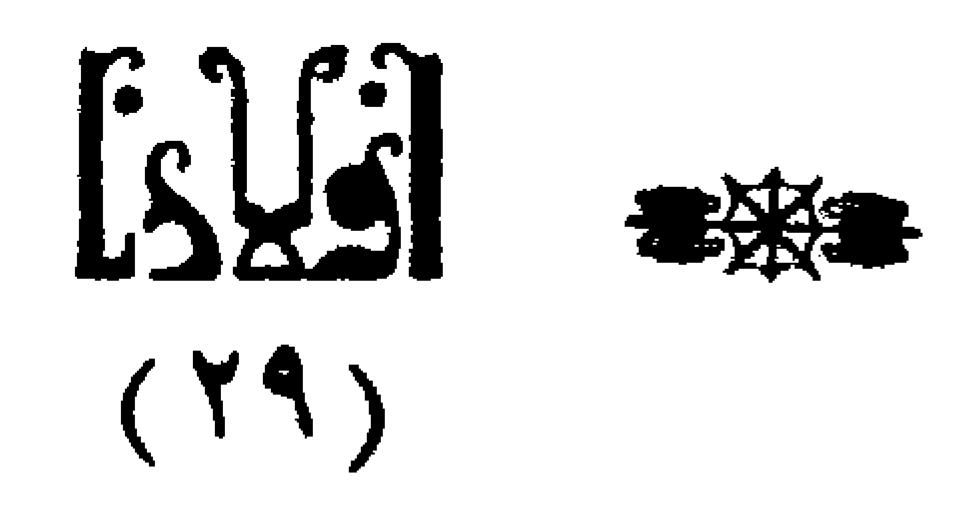
أولادنا

الربان الجرئ

بقلم

عبد التواب يوسف

الرُبَّانُ الجَرِيء



الرُبان الجرىء

رواية عربية

بقلم

عبد التواب يوسف

الطبعة الثالثة

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

هذه قصة من تاريخنا ، فيها جوانب مشرقة رائعة ، حاول البعض أن يسدل عليها ستاراً كثيفاً فلا نستدل عليها ، وقد نغفل عنها هرباً من بعض صورها . .

. . ولكنها بمقياس العصر الذى وقعت فيه تعد أسطورة فذة ، وبطلها يحق لنا أن نفخر به ، على الرغم مما حاولوا إلصاقه بحياته وتصرفاته ، فليس لدينا سجل لها ، ومراجعنا – مع الكثير من الأسف – أغلبها من خصومه . . ونحن هنا نحاول أن ننق الصورة مما علق بها من شوائب نتيجة لزمن طويل أحال من فوقها التراب ، ونتيجة لروايات غريبة تناثرت هنا وهناك بلا أسانيد ولا رابطة تجمعها . .

منذ قرن ونصف أراح « رحمة » الدنيا ، واستراح . . لقد كان قَلِقاً ، مُقلِقاً ، عاش حياته العريضة بحّاراً عظيماً ، وملّاحا محارِباً ، وربّاناً جريئاً ؛ يتخذ من البحر ميداناً لتلك الفروسية التى مارسها

جدوده وأهله على البر ، ولم يملك البعض إلاّ أن يعترفوا ببطولته . .
وهذا بعض مما قالوه عنه :

يقول جيمس بلجريف :
« إن الرُّبّان الكويتى الجرىء رحمة بن جابر أبلى بلاء عظيماً فى معركة البحرين ضد الفرس .
ومنذ ذلك الحين ذاع صيته وشاع . . » .

ويقول بوكنهجام :
« هذا المحارب البارع كان يعيش حياة بسيطة ولا يرتدى إلاّ اليسير من الثياب ، حتى إنه ما من غريب يستطيع تمييزه عن رفاقه إذا ما سار وإياهم . . وكان نحيل الجسم ، نحيل الأطراف ، تملأ جسمه آثار الجراح . . أما وجهه فقاس ، خال من معانى الجمال ، ويزيده قسوة آثار الجروح فيه ، وفقدان إحدى العينين » .

ويقول جان جاك بيربى :
« سيطر هذا الملّاح المحارب على الخليج فترة طويلة ، وعندما رأى الدائرة ستدور عليه ، وأيقن أنه لا محالة هالك ، فجَّر بنفسه مركبه ،

وألحق الهلاك ببحارته وأعدائه . . وبعد رحمة لم يعرف الخليج ربابنة محاربين » .

ونحن نقول :

فليكن رأيهم فيه ما يكون . . أما نحن فإننا لابد أن نعرفه ، ونعتز به ، ونلقي الضوء على حياته ومغامراته . . وقد يكون من بين هذه المغامرات ما لا نرضى عنه ، ولكن الرجل كان إنساناً : بضعفه وقوته ، بخيره وشره ، بحسناته وسيئاته . . بل كان « بطلا » بمقياس الأيام التى عاش فيها ، وكان « مناضلا » بمقياس العصر الذى نعيشه . .

رحم الله « رحمة » .

* * *

١

فارس أم بحار!

وبدأت المعركة . . .

كانت حامية الوطيس ، و « رحمة » الصغير يرى وهو يقاتل الصبيان واحداً بعد الآخر ، وينتصر عليهم انتصاراً باهراً . . ولكن أحدهم كاد يغلبه ، إلا أنه استطاع أن يتماسك ، ويقبض عليه بيد من حديد ، ثم يطرحه أرضاً ويرقد فوق صدره ، وما إن رفع يده يريد أن يهوى بها عليه حتى تكاثر الأطفال ضده ، كل منهم يأخذ بتلابيبه من ناحية ، ويتجاذبونه بينهم ، فأصابه الدوار ، وشعر كأنما هو وسط أمواج بحر تتقاذفه ، لم ينقذه منها إلا صياح الديك ، وصوت أمه . . فاستيقظ من نومه ، ودعك عينيه ، وهزَّ رأسه ، وهو لا يكاد يصدق أنه نجا من خصومه . .

قالت له أمه :

– هيا ياولدى . . انهض . .

قام من فراشه يتمطى ، ويحرك ذراعيه مدًّا وثنياً ، وهمس فى صوت متراخ :

– ها قد نهضت يا أمى . .

هتفت فى حنان :

– احلب لنفسك بعض لبن العنزة . .

مضى الصغير إلى خارج الخيمة فى بطء وتثاقل ليستقبله النور والهواء ، فراح يملأ عينيه وصدره ، وينشق عطر الصباح فى سعادة غامرة ، إذ كان يحب هذه اللحظة من يومه : لحظة لقائه بالصباح الجديد . . ، وتطلع ببصره إلى السماء الصافية وقطعة بيضاء من السحاب تدفعها الرياح فى حنو ، والشمس تشرق رويداً من خلفها ، وشعاعات حمراء قد بدأت تطل من وراء الأفق . . ومن بعيد وصل إلى سمعه صوت مياه الخليج ، هادئاً هامساً ، والموج يتكسر فى رفق على شط قريته « التى تطل عليه » والنسيم يداعب أطراف النخيل وقد تفتحت قلوبه تجاه السماء ، كأنه فى صلاة صامتة .

أقبل الصبى على العنزات الأربع ، فتمسحت به وهو يركع بجانبها وفى يده إناء صغير ، استطاع بعد جهد كبير أن يملأه لمنتصفه باللبن ، وناولته أمه بضع بلحات ، بدأ يأكلها ويشرب اللبن . .

سألته أمه :

- إلى أين تذهب اليوم ؟

- إلى البحر طبعاً ، مع عمى . .

قالت أمه فى لهجة تحمل عتاباً رقيقاً :

- ومن يصحب العنزات لترعى العشب مع ماشية خالك ؟

- لقد سئمت المرعى . .

- ياولدى ، العنزات فى حاجة إلى الطعام ، وإلا فلن تعطينا اللبن . .

- تستطيع أختى أن تذهب بها . .

انصرفت الأم إلى شئونها ، على حين راح هو يعد الشباك ، ومضى بعض الوقت قبل أن تقول الأم :

- لست أدرى لماذا بدأت تنصرف عن بيت خالك ؟

- كنت هناك بالأمس ، وسهرت إلى ساعة متأخرة أسمع قصة « عنترة » . . اعتدلت شقيقته فى فراشها ، وهتفت :

- أحسست بك عندما عدت ، ورأيتك فى ضوء القمر تحمل قطعة من الخشب ، وتمتطى صهوة شىء ما على أنه حصان ، وتَصُول وتَجُول ، كأنما أقبل جيش الأعداء ، ورحت تنهال عليهم طعناً وتقتيلا . .

أطرق « رحمة » وضحك فى خجل وهو يقول :

– ظننتك نائمة .

قالت الأم :

– إن هذا العبث لم يعد يليق بك ، أنت الآن فى العاشرة من عمرك وأقرانك فرسان بحق .

قال :

– وأنا أيضاً فارس ، لولا أننا لا نمتلك حصاناً . .

قالت أخته :

– ألم تقل إنك تريد أن تصبح بحاراً ؟ . .

لم يجب « رحمة » ولكنه انصرف مهرولا إلى الخارج ، حاملا أدواته ، وهو يطرح على نفسه هذا السؤال :

– فارس أم بحار ؟ . .

لقد ناقش الأمر مراراً ، وتحدث عنه مع « خليل » ابن خاله ورفيقه ، ومع أخته وهم يجلسون إلى ظلال النخيل والأغنام ترعى العشب بالقرب منهم ، وتمضغ طعامها وإفطارها ، وتجترها فى صمت . .

كان « خليل » يدافع فى حرارة عن الفروسية ، فهو يهوى الخيل ويحب ركوبها ، كما أنه ورث الإعجاب بالفرسان عن أبيه الذى يرى أن عنترة هو بطل الأبطال . . وقد أقام الأب وليمة حافلة ، شهدها كثيرون

جاءوا من أماكن بعيدة ، وكانت المناسبة أن الراوى كان قد وصل فى قصته إلى زواج عنترة من عبلة ، فانتهز الأب الفرصة لكى يقيم هذا الحفل البهيج الذى ظل حديث الناس لفترة طويلة . . إذ كادت الوليمة تنقلب إلى معركة ، لأن واحداً من الموجودين تجاسر وقال إن « عنترة » لو قابل « الهلالى » لما استطاع أن ينتصر عليه . . ولقد ضاقت أم « خليل » بإعجاب زوجها الشديد بالبطل الشهير ، وطلبت إليه أن يهتم بعمله ويلتفت إلى رزقه ، بدلا من الجرى وراء هذه الروايات والحكايات ، وانضم « خليل » إلى والدته وساندها فى هذا الموقف ، فإذا بالأب يثور ثورة عارمة ، ويخاف الابن غضبة أبيه فينطلق إلى بيت عم له ، يشكو إليه ما حدث ، فهدَّأ العم من ثائرته قائلا :

– أبوك أخى ، وأنا أعرفه جيداً . . كثيراً ما طلبت منه أن يدع هذه الخيالات . . سَعِد خليل بكلمات العم ، واطمأن إلى أنه سوف يعيد الوالد إلى صوابه ويرجعه عن هذا الطريق ، وواصل العم كلماته قائلا :

– نعم . . والدك يعيش فى خيالات مريضة . . أنا واثق من هذا . . إن بطله « عنترة » هذا لا يستطيع أبداً أن يهزم الزناتى خليفة . . لو أنه قابله . .

ذهل خليل ، وأدرك فى هذه اللحظة فقط أن الأسرة كلها مفتونة بالحكايات الشعبية وأبطالها . وكثيراً ما كان « رحمة » يداعب والدته وصديقه « خليل » بهذه النوادر ، وتضحك الأم وابن شقيقها ، ويردان له الصاع صاعين بالنسبة لغرام أسرة والد « رحمة » بالبحر ؛ إنهم جميعًا بلا استثناء بحارة ، وصيادو أسماك ولؤلؤ ، وهم لا يستطيعون أبداً أن يحرروا أنفسهم من حب البحار والأسفار . . بل إنه هو أيضاً قد ورث عنهم هذا الحب ، ولم يكن يوقعه فى الحيرة بين الفروسية والبحرية سوى الحكايات التى كان يسمعها فى بيت خاله ، والتى كانت تسحره قبل أن يحمل عمه من البصرة نسخة من « ألف ليلة وليلة » ، ليقرأ له فيها قصة « عبد الله البرِّى وعبد الله البحرى » وقصص السندباد . . وكان عمه يتطلع إلى الخليج وهو يقول له :

– من هنا خرج السندباد إلى الدنيا الواسعة . . أبحر فى رحلته الأولى إلى الأرض المتحركة ، ولقى هناك خيول البحر حين رست سفينته عند صوت حسبوه جزيرة . . وفى رحلته الثانية تركوه فى جزيرة نزلوا إليها وأبحروا منها قبل أن يستيقظ من نومه ، وعندما استيقظ رحل إلى أرض الماس ، ليلتقطه الرخ ويطير به فى أول رحلة جوية قام بها إنسان . . وعندما ضلت سفينته فى رحلته الثالثة زار وادى الأقزام والعمالقة ، و . . .

ويحفظ « رحمة » عن ظهر قلب قصص السندباد كلها ، ويرويها بشغف وحب لشقيقته والخليل ، ولبقية الرفاق والأصدقاء ، وكانت له وقفة طويلة قرب نهاية الرحلة السابعة التى أنهى فيها السندباد رحلاته الرائعة ، ففيها حمل سندباد هدايا الخليفة هارون الرشيد إلى ملك سرنديب « وبعد انقضاء مدة الضيافة استأذن السندباد ملك سرنديب فى العودة إلى مدينة السلام – بغداد – فسافر إليها مُحمَّلا بالهدايا والعطايا ، على مركب به كثير من التجار ، ومعهم الأحمال والمتاع ، وهبت الرياح فتحركت السفينة شطر بحر العرب ، فإذا بقوم كالأباليس ، عليهم الدروع والعود ومعهم القسىُّ والنبال ، يعترضون بمركبهم سفينة السندباد ، وينزلون إليها فينكِّلون بمن فيها ويقتلون من يقاومهم ، ثم يسوقون الباقين إلى البر ويبيعونهم فى سوق العبيد » .

ويردد « رحمة » هذه الفقرة من القصة ، كالمسحور ، ويسأل ويتساءل :

– من هم هؤلاء « الأباليس » ؟ . .

ولم يجد عند عمه إجابات شافية ، إذ كان يصرفه عن هذا الحديث بإشارة من يده ، أو يحكى فى إيجاز شديد واحدة من حكايات لصوص البحر ، يفتتن بها « رحمة » ويتمنى لو أنه التقى بواحد من هؤلاء المغامرين بعد أن ترددت أسماء كثيرين منهم أمامه ، مقرونة

بالخوف من أصحابها . . وكثيراً ما كان يمضى إلى الشط ، يرقب السفن والبحارة ، يبحث بينهم عن هؤلاء « الأباليس » فلا يجدهم . . وقد يختار لنفسه بقعة خالية من الشط ، ومعه بعض أصحابه ، ويقوم بصناعة زوارق من ورق ، يدفع بها إلى الماء لتطفو وتسبح ، ومن مكانه على الأرض يصوب إليها قذائفه لكى يصيبها ويغرقها ، ويسأله الصحاب :

- لِمَ هذا يا « رحمة » ؟ . .

- إنى أتصورها سفن الأعداء . .

ويقول واحد منهم ويعقب آخر :

- كل السفن للأعداء . .

- نعم ، لم يكن للعرب سفن . .

ويهتف « رحمة » فى غضب :

- بل كانت لنا السفن ، شاعرنا قبل الإسلام هو القائل :

ملأنا البر حتى ضاق عنا   وماء البحر نملؤه سفينا

وأنشد الجميع هذه الكلمات ، موقعة على أنغام حلوة . . وما إن انتهوا من الغناء حتى واصل « رحمة » حديثه :

- ثم : ألم تسمعوا عن معركة « ذات الصَّوارى » ؟ . . ألم تسمعوا عن سفن « طارق بن زياد » ؟ . .

سأله أحدهم :

- كيف عرفت كل هذه الأشياء ؟ . .

أجابه :

- أعمامى لهم صلات قديمة بالبصرة ، وهم دائماً أبداً رائحون إليها غادون منها ، يحملون التجارة وينقلون البضائع . . ويأتون منها بالكتب . .

سألوه :

- هل ذهبت أنت إلى البصرة ؟

قال :

- ذهبت إليها مرة وأنا صغير . . لا أكاد أذكرها . . رأيت فيها سفناً كثيرة لا حصر لها . . ومنذ عام لم يعد أعمامى يترددون عليها ، فقد احتلها الفرس ، لذلك تحولت تجارة الهند إلى بلادنا « الكويت » تمر عبرها من الشرق إلى سوريا . .

ويمسك « خليل » الخيط ، ويروى قصة القوافل التى تسير براً ، يحميها الفرسان حتى تصل إلى « دمشق » . . ثم يتشعب الحديث بين الصحاب ، ويقضون وقتاً طيباً ، ثم يعودون إلى دورهم . . ويبقى « رحمة » وحده ، لا يريد أن يغادر الشط ، ولا يرغب فى العودة انتظاراً لقدوم سفينة تحمل « الأباليس » . .

وهكذا تسلل حب البحر إلى نفس « رحمة » فكان يستيقظ كل صباح ليجرى إليه ، كأنما هو يناديه ، وما كان يستطيع أن يقضى يوماً كاملا بدون أن يسبح فى مياهه ، أو يستقل سفينة تبحر فيه ، أو يشارك عمه فى الصيد . . وعندما شعر العم بغرام « رحمة » وحبه الكبير للبحر ، قال له :

– يا « رحمة » . باعد ما بينك وما بين هذا البحر . .
إيّاك أن تصدق ابتسامته ذات يوم صاف جميل .
احذر دعوته لك إلى رحلة ممتعة مع النسيم .
لا تقبل إغراءه لك بالتجارة الرابحة ، باللؤلؤ الثمين .
إنه يحفر لك فى جوفه قبراً ، أو يقذف بك إلى الشطّ حطاماً .

ولم تنجح كلمات العم فى صد « رحمة » عن البحر ، كما لم تستطع حكايات الخال أن تجذبه إلى البر ، إذ أصبح الخليج رفيقه وصديقه ، وأضحت أحلى أوقاته تلك التى يقضيها بجانبه أو وسط مياهه ، أو فوق سفينة تمخر عبابه . . وكثيراً ما كان يقف ، ويمسك بيسراه السارية ، فى حين يضع يمناه فى وسطه ، ويتطلع إلى الأفق البعيد ، كأنما يستشف عنده المستقبل ، ويسأله عما يخبئه له ذلك البحر الأخضر الساحر . .

وفى واحدة من هذه الرحلات القصيرة لقى « رحمة » رجلا هنديًّا عجوزاً ، له لحية سوداء كثة ، وعينان لامعتان ذكيتان ، ووجه أسمر



باسم . . وقد تفرّس الرجل طويلا فى وجه الصبى ، وطلب إليه أن يبسط كفَّيْه ، وحدَّق فيهما لحظات قبل أن يقول له ، وعمه يقف بجانبه يسمع فى دهشة :

- يا رحمة بن جابر . .

عين ماء تقودك إلى الماء ،

تفقد العين وتسود الماء ،

تصبح عيناً ويغلبك الماء .

* * *

٢

البحّار الصغير

ذات مساء ، كان « رحمة » يقف وحده على الشط يسامر المياه ، ويحدثها ، وأصداء كلمات الهندى العجوز ترن فى أذنه ، وقد غفل عن كل ما حوله . . ومن بعيد تهادت سفينة ضخمة ، ذات أشرعة بيضاء أربعة ، وعندما اقتربت من الشط ألقى البحارة المرساة فى رقة كأنما يخشون أن يمزقوا صفحة المياه . . وجرى « رحمة » تجاه السفينة حتى لامست قدماه الماء ، تغسلها الأمواج غادية رائحة ، والسعادة تملأ قلبه ، إذ لاحت له فرصة رؤية مثل هذه السفينة الكبيرة التى لم ير مثلها من قبل ، وأدهشه أن ترسو بعيداً عن الميناء ، وفى هذه البقعة الخالية من البيوت والناس . .

وقفت السفينة ثابتة كالطَّود ، وأنزل بحارتها بعض القوارب فى الماء ، وراحوا يجدّفون تجاه الشط ، « ورحمة » يرقبهم فى ذهول ويتساءل عمن يكونون . . وعندما اقتربوا منه رأى أنهم يلبسون

ملابس غريبة ، ويحملون أسلحة عديدة ، ويضعون فى آذانهم أقراطاً ذهبية . .

وبعد لحظات قفزوا إلى البر بخفة وسرعة ، وكان يتقدمهم واحد حول أصبعه خاتم تلمع فيه ماسة كبيرة . . أقبل هذا الرجل نحو « رحمة » وقال له فى لغة عربية ركيكة تشوبها لكْنة تركية :

– نحن نبحث عن مياه عذبة للشرب . . سمعنا أن هنا عين ماء قريبة . .

قال رحمة :

– هذا صحيح . . تعالوا أدلكم عليها .

ومضوا خلفه يحملون قرباً فارغة ، وعندما وصلوا عند العين بدءوا يملئونها ، ورئيسهم ذو الخاتم البراق ، يرقبهم فى اهتمام ، ويطالبهم بالإسراع فى عملهم . .

اقترب « رحمة » منه ، وسأله :

– هل أنت بحّار؟

أجاب الرجل :

– نعم . .

سأله « رحمة » :

– هل رأيت قرصاناً ؟ . .

ضحك الرجل ضحكة عالية ، وقال :

- ربما . . أظن أنى قابلت بعضهم . .

هتف « رحمة » فى دهشة وفرح :

- حقًّا ؟ . . هل رأيت « كابتن كيد » شخصيًّا ؟ هل قابلت « بيريك التركى » ؟ هل عرفت « الأمير مهنا » ؟ . .

ابتسم الرجل ابتسامة عريضة وهو يقول :

- لا أظن أنى تشرفت برؤية أحدهم ، ولكن زعيمنا قابل بعضهم ويعرف الكثير عنهم ويحب أن يراك ويتحدث إليك عنهم . . فإنك برغم جهلك تبدو صبيًّا ذكيًّا . .

وأضاف واحد من البحارة :

- حقًّا ، لماذا لا تأتى معنا إلى السفينة وتتحدث إلى القبطان ؟

سألهم « رحمة » فى لهفة :

- هل أستطيع أن أصحبكم ؟ . .

أجابه أحدهم :

- نعم ، لِمَ لا ؟ . .

قال « رحمة » :

- ولكن أمى تنتظرنى ، وستقلق لو أننى تأخرت كثيراً . .

رد الرجل ذو الخاتم البراق فى أصبعه :

— لا . . لن تتأخر . .

وحمل القارب قِرَبَ المياه ، والبحارة ، ورحمة . . وكان الظلام قد بدأ يزحف ، وتناثرت النجوم فى السماء ، ولف الدنيا هدوء عميق ساحر مثير . . وعندما وصلوا إلى قرب السفينة شاهد « رحمة » سُلَّماً من الحبال يتدلى إلى جانبها ، وبدأ البحارة يتسلقونه إلى ظهر السفينة .

مضى « رحمة » خلف الرجل ذى الحلىّ البراقة فى أذنيه وأصبعه حتى وصلوا إلى قُمرة ، طرق الرجل بابها بعنف وهو يقول :

— سيدى القبطان . . إن معى ضيفاً يريد أن يتحدث إليك . . وقد سبق لك أن طلبت منى أن أبحث لك عن واحد مثله . . وهو يريد أن يعرف شيئاً عن القراصنة من أمثال كابتن كيد ، وبيريك التركى ، والأمير مهنا ، وذى اللحية السوداء . .

سمع « رحمة » وقع أقدام عنيفة ، ثم فُتح الباب وانبعثت من خلفه ضحكة عالية كالرعد ، ودفع البحار « رحمة » إلى الداخل ليرى القمرة شبه مظلمة ، وقد جلس رجل ضخم الجثة إلى مائدة صغيرة ، يخفى من خلفه مساحة كبيرة من الغرفة ، ويدخن فى شراهة . . كان شديد السمرة ، شعره بلون وجهه ، وعيناه لامعتان يتطاير منهما الشرر حتى ليكاد يضىء المكان ، وعندما ضحك ملأت ضحكته الغرفة ، ولما رفع يده ليشعل غليونه،ووضعها على المنضدة أنَّت تحت أصابعه .

ساد الصمت فترة تصورها « رحمة » ساعات كاملة ، والرجل يقذف من فمه دخاناً لا يصدر إلا عن مدخنة ، ثم ألقى نحو « رحمة » بنظرة عابسة ، وقال وكلماته تنطلق من فمه كالحمم :

– ماذا تريد أن تعرف عنّا ؟

رفع « رحمة » بصره إليه فى دهشة وقال :

– عنكم ! ! . . أنا أريد أن أعرف الكثير عن القراصنة . .

قال الرجل :

– نحن قراصنة . .

فتح « رحمة » عينيه ، وفمه ، وهتف فى ذهول :

– أنا إذن فوق ظهر سفينة قراصنة ؟

قال الزعيم :

– نعم . . ولو أن من تسأل عنهم من القراصنة شُنقوا منذ وقت بعيد . . آخرهم « الأمير مهنا » . . كان شجاعاً داهية . . وقد اعتقله الأتراك عام ١٧٥٠ ، أى منذ خمسة وعشرين عاماً ، وقطعوا رقبته وعرضوه فى شوارع البصرة على الناس ليشهدوا ما حل به . . صعق « رحمة » لهذا الذى يسمعه ، ولم يفتح فمه بكلمة ، فى حين أضاف زعيم القراصنة :

– ها قد عرفتنا . . بقى أن نعرف من أنت أيها الصبى ذو الوجه

القاسي والملامح الخالية من الجمال . .

– أنا . . أنا . . أنا « رحمة » . .

قهقه القرصان الكبير للاسم الرقيق ، على حين واصل الصبى كلماته :

– اسمى رحمة بن جابر . . عمرى نحو اثنى عشر عاماً . . ولدت فى الكويت . . وأنا يتيم الأب . . أعيش مع أمى .

قال القرصان :

– كفى . . أنت من هذه اللحظة غلامى . . فإننى منذ وقت بعيد وأنا أبحث عن صبى مثلك ينظف غرفتى وينظمها ، ويقوم على خدمتى . . والآن هيا إلى عملك . .

غضب « رحمة » لهذا الذى يحدث ، فقد صعد إلى ظهر السفينة ليسمع عن القراصنة ، فإذا به يجد نفسه وجهاً لوجه معهم ، ثم ها هم أولاء يتبعون أساليب القرصنة معه ، لذلك هتف فى عنف :

– لست أريد أن أكون غلاماً لأحد ، كما أنه لا رغبة لى فى مثل هذا العمل . .

صرخ فيه القبطان :

– لم نسألك إن كنت تريد أو لا تريد ، ترغب أو لا ترغب . . ليس لأحد هنا إرادة خاصة ، أو رغبة معينة ؛ إنما الكل طوع إرادتى

ووفق رغبتي . . أتفهم هذا ؟ . .

ولطم القبطان « رحمة » على وجهه بعنف وقوة ، ودارت به الأرض وكاد يسقط لولا أنه تماسك ، وتمالك قليلا قبل أن يقذف بنفسه مهاجماً الزعيم ، فاصطدم به ليرتد دون أن يتحرك الرجل من مكانه قيد أنملة ، بل بقى ثابتاً كالجبل ، والضحكة العالية كالرعد تنطلق من صدره . . وقال :

- يالك من غلام شجاع . . لن تُعاقَب على هذا الذى فعلته تقديراً لجرأتك . .

وقام من مكانه ، وقبض على ذراع « رحمة » ، وقاده بعنف إلى خارج القمرة ، وما إن ظهر فوق ظهر السفينة حتى أسرع البحارة إليه ليتلقوا تعليماته ، فقال لهم :

- خذوه لتدربوه على العمل ، واحذروا أن يعتدى عليه أحد منكم . .

اصطحب البحارة « رحمة » بالقوة بعيداً عن قمرة الزعيم الذى دخل وأغلق الباب ، ومضوا بالغلام وهو يقاوم حتى استطاع أن يفلت من بين أيديهم ، لتبدأ مطاردة فريدة بينهم وبينه . . كان فيها أشبه بالفأر يجرى بسرعة فائقة إلى ركن من الأركان ، وما إن يحاصروه ويتصوروا أنهم قاب قوسين أو أدنى من القبض عليه حتى يفاجئهم

يتسربه من بين أيديهم كالزئبق . . كان يختفى وراء البراميل ، وما إن يجروا تجاهه حتى يقفز فوق إحدى القمرات ، وعندما يصعدون إليه يتسلق سارية ، كأنه قرد ماهر ، ومنها يتعلق بأخرى إذا وجدهم وراءه . .

وبعد قليل كان كل بحارة السفينة يتعقبونه وهم يطلقون أصواتاً عالية نبهت القبطان إلى أن شيئاً غريباً يحدث خارج قمرته ، ففتح الباب ليذهله ما يجرى . . الغلام ينطلق ، ويتسلق ، ويتسلل ، ويقفز ، ويزحف ، والمطاردون من ورائه بالعشرات ، ولا أحد يقدر على الإمساك به ، عند ذلك صرخ القبطان فيهم :

– كفى . . فليرجع كلٌ إلى عمله .

هدأت الثورة قليلا ، ووقف « رحمة » كالفأر المذعور يلتقط أنفاسه ، وقهقه القبطان وهو يقول له :

– إنك رائع . . ذلك يجعلنى أكثر تمسكاً بك . .

قال « رحمة » :

– دعنى أنزل ، وإلاّ ألقيت بنفسى من السفينة إلى الماء . .

ابتسم القبطان فى هدوء ، وقد راح يفكر بسرعة :

– اهدأ . . ولسوف نجيبك إلى ما تطلب . .

وتقدم نحوه ببطء ، وتراجع « رحمة » يقول :

– لا تحاول أن تمسكنى . .

وكان القبطان قد وصل إلى كومة من الحبال امتدت يده إليها دون أن ينظر إلى « رحمة » وفجأة طار الحبل فى الفضاء ، فإذا به يستقر من حول عنق الصبى ، ويكاد يخنقه ، فيقع على الأرض . . وتقدم منه القبطان يوقفه ويقول له وهو يخفف من ضغط الحبل على رقبته :

– لقد أصبحت أسيرى . .

التقط « رحمة » أنفاسه وهو يقول :

– إنها حركة رائعة تستحق عليها التهنئة ياسيدى القبطان . . هل تعلِّمنى إيّاها ؟ . .

قال القبطان :

– ابق معى وستتعلم الكثير . .

هتف رحمة :

لا . . لا . . إننى لا أريد البقاء . .

قال القبطان :

– قلت لك من قبل : لا إرادة لأحد هنا غير إرادتى . .

والتفت القبطان إلى البحارة وأمرهم فى صوت عال :

– ارفعوا المرساة ، وانشروا القلاع ، ولتنطلق السفينة تجاه الجنوب . .

بقى « رحمة » مقيداً ، حبيس قمرة القبطان حتى مضت السفينة إلى عرض البحر ، ثم أطلق البحارة سراحه ليتجول على ظهر السفينة ويلقى البحارة الذين كانوا يحيونه مبتسمين ضاحكين ، متمنين له مستقبلا عظيماً بينهم . وظل هو غاضباً ، ضيق الصدر بكل ما يجرى حوله لوقت طويل ، ثم اضطر أخيراً لمجاراتهم والتعامل معهم . . وكانوا يضحكون فى مرح كلما تذكروا المطاردة المثيرة التى بدأ بها « رحمة » حياته معهم ، والتى جعلته معروفاً للجميع منذ اللحظة التى وضع فيها قدمه على ظهر السفينة . . ليصبح أصغر قرصان عرفه التاريخ . .

وذات ليلة مقمرة جلس « رحمة » وحده على سطح السفينة ، وسمع أغنية هندية تترامى إليه من بعيد ، يغنيها واحد من البحارة . . وتذكر « رحمة » الهندى العجوز ، وكلماته التى كان يحفظها عن ظهر قلب :

« عين ماء تقودك إلى الماء » . .

لقد تحققت النبوءة الأولى . .

* * *



٣

أَلِفَ « رحمة » حياته الجديدة ، وأحبه القبطان ، والبحارة ليقظته وذكائه . . وبدأ يشارك فى أعمال كثيرة ، يقبل عليها فى اهتمام ومقدرة ، ويؤديها فى براعة وكفاية ، وشعر الجميع بأنه سوف يصبح بحاراً ممتازاً . . وكثيراً ما كانوا يعتمدون عليه فى أعمال لا يقوم بها إلا المدربون منهم ، مما جعل القبطان يعجب به إعجاباً شديداً ويقرّبه إليه ، ويتبسط معه ، ويرفع عنه أعمال النظافة ، التى لا يكلف بها إلا أقل الناس شأناً على السفينة ، ولم يكن « رحمة » من بينهم ، بل هو يقوم على تلميع السيوف والمدافع ، وإعداد الذخيرة والبارود ، ويشارك فى كل شىء ، بل يحدث القبطان حديث الند للند . .

قال « رحمة » يوماً للقبطان :

– أريد أن أضع قرطاً ذهبيًّا فى أذنى مثل الباقين ، بل إنى أريد أن يكون لى خاتم فى أصبعى ، به لؤلؤة من الخليج العربى . .

وضحك القبطان ، وقال له بصوته الجهورى :

– ها قد بدأت تطلعاتك أيها القرصان الصغير . .

سأله « رحمة » :

متى يكون لى بحق مثل هذه الخواتم . .

أجابه القبطان :

– ستكون لك هذه الخواتم عندما تستطيع أن تستولى عليها عنوة وبالقوة . .

وأشار زعيم القراصنة إلى الأقراط البراقة الجذابة فى أذنه وقال :

– لقد رفض صاحب هذه الأقراط أن يعطينى إياها ، فاضطررت لأن أفقده أذنيه لكى أحصل عليها . .

اقشعرَّ بدن « رحمة » وهو يسمع هذه العبارة ، وغطى عينيه بكفيه كأنما يريد ألا يتصور هذا المنظر الرهيب ، ورد فى فزع وضيق :

– لست فى حاجة إليها إذا كان هذا هو سبيل الحصول عليها . .

صاح فيه القبطان :

– كف عن هذه التصرفات الصبيانية ، وأمسك عن هذه الكلمات الرقيقة . . أنت لم تعرف حقيقة الحياة فى البحر ، إنها حياة لا تعرف الرحمة يا « رحمة » . . إنك إذا لم تُفقد عدوك حياته فقدت حياتك أنت . . واحد منكما فقط هو الذى يستطيع أن يعيش .

انصرف « رحمة » والصور تتتابع أمام عينيه ، والكلمات ترن فى أذنيه ، فيفزع منها ، ولكن العمل كان يحتويه ويشغله عن كل

ما عداه ، وهو يستمتع بعمله ويحاول فى دأب شديد أن يعرف كل شيء ، وأن يلم بما يجرى حوله . . وعندما يسلم رأسه للنوم يمر به شريط الذكريات : يفكر فى أمه ، وشقيقته ، ترى كيف حالها ؟ هل يمزقها القلق على غيبته ؟ وعمه ، وخاله ، وخليل صديقه : ما أخبارهم ، كم يود أن يبعث إليهم برسالة يخبرهم فيها بأنه بخير ، ولكن كيف السبيل إلى هذا وهو لا يرى طيلة يومه غير الماء والسماء ؟ . .

ومع الزمن ، بدأ شريط الذكريات يقصر ، ويبهت ، خاصة وقد بدأت اهتماماته تتغير ، وأصبح يتابع أحاديث القبطان مع أعوانه عن التيارات السياسية التى تجتاح الخليج ، وأحس بأنها أعنف بكثير من تيارات المياه ، وعواصف البحر . . إن هناك قوى عدة تتصارع فى هذا المكان ، كل منها يريد أن يثبت وجوده ، ويستأثر بالنفوذ . .

العثمانيون ، والفرس ، والهنود . . ثم أوروبا ممثلة فى البرتغال ، وفرنسا ، وهولندا ، وإنجلترا . .

ولم يكن « رحمة » يكف عن السؤال عن حكاية كل من هؤلاء ، وأدهشه أن تتمكن البرتغال - البلد الصغير البعيد - من أن تصل بنفوذها إلى الخليج ، وعرف قصة الصراع بين عرب مصر وبين البرتغاليين ، وسمع عن المعارك البحرية الطويلة التى دارت رحاها فى

البحر الأحمر بين أسطولى البلدين ، وكم أسف لأن الصراع قد انتهى لمصلحة البرتغال بسبب استعمار العثمانيين لمصر والوطن العربى كله . .
وتنبه « رحمة » لخطورة هذا الذى جرى ، ويجرى . . وعرف أن الصراع بين إنجلترا وفرنسا امتد لسنوات طويلة ، بل إن الحرب بينهما امتدت لسبع سنوات كاملة انتهت بهزيمة فرنسا وتخليها عن مستعمراتها فى الهند لإنجلترا ، ومنذ ذلك الحين قلَّ نفوذ فرنسا فى الخليج . . وكان السؤال الذى يلح على « رحمة » قبل أن ينام كل ليلة :

– أين نحن العرب من كل هذا ؟ . .

غرق « رحمة » فى بحار أفكاره ، وكان يسمع أكثر مما يتكلم ، ويعمل أكثر مما يسمع ، ويتعلم ويتدرب فى صبر ودأب شديدين ، والبحارة يضحكون لشغفه واهتمامه بالبحر والسفن ، بالقوى المتصارعة والدول صاحبة المصالح ، على أن أكثر ما كان يثيره حكاياتهم عن المعارك التى خاضوها ، وتمنى لو تتاح له فرصة ليشهد واحدة منها . . وكانوا يقولون له :

– صبراً . . لا تتعجل ، فلسوف تخرج من معركة لتدخل أخرى . .

ولم يطل به الأمر ، إذ سمع يوماً صوت واحدٍ من البحارة يهتف :

– أرى على البعد سفينة تجارية . .

جرى الجميع يتطلعون إلى حيث أشار البحّار وفى عيونهم نهم وجشع ، ظهر واضحاً عندما ثبت لهم أن السفينة ليست لمواطنيهم ، وأن عليها حمولة كبيرة قادمة من الهند ، وعندئذ صاح فيهم القبطان :

– هيا . . أعدوا كل شىء للهجوم . .

ارتفعت الراية الســوداء ، وعليها الجمجمة والعظمتان المتقاطعتان . .

وجهزت الذخيرة ، ووقف الرجال وراء المدافع ، وامتشق كل منهم سلاحه ، وضاعفت السفينة من سرعتها تجاه صيدها الجديد ، إلى أن استطاعت أن تلحق بها ، وعندها ارتفعت قهقهة الزعيم ، وهو يصيح بصوت مدوى :

– اطلقوا النار . .

ودوت قذيفة ، وأخرى ، وثالثة . . وانعقدت سحابة من دخان كثيف ، يغطى سفينة القراصنة فى ظلام مخيف ، اضطر معه « رحمة » إلى أن يغلق عينيه ، وظل يسعل بصوت مرتفع ، وشعر بأنه يكاد يختنق . . وكانت السفينة تهتز بعنف وقوة ، والمياه تتناثر إثر سقوط القذائف فيها ، إذ كان القراصنة يصوبون مدافعهم قرب السفينة ، فما كانوا يرغبون فى إغراقها ، بل يريدون منها أن تسلم لهم . . وعندما فتح « رحمة » عينيه وجد أن سحابة الدخان قد بدأت تنقشع وتتبدد ،

وشاهد وسط الدخان راية بيضاء تداعبها الرياح ، وأدرك أن السفينة استسلمت . .

اقتربت سفينة القراصنة من صيدها الثمين ، والتصقت السفينتان ، ثم ارتبطتا بدعامات خشبية وضعها القراصنة ، وساروا من فوقها يطلقون صرخات مرعبة ، ويلوحون بسيوفهم اللامعة ، ثم قفزوا بكل عنف فوق ظهرها ، وأطاحوا ببعض بحارتها الواقفين فى يأس وحزن ، ثم أفسحوا الطريق لزعيمهم الذى سار فى خيلاء ، وهبط إلى السفينة فى غرور ، وصرخ فى بحارتها :

– أعطونا كل ما لديكم من ذهب وفضة وحرير . .

انتشر القراصنة فوق السفينة ، يجردونها من كل شىء ، ووقف « رحمة » من وراء حاجز سفينته يرقبهم وهم يأخذون كل ما يستطيعون حمله منها ، وينادونه أن يعاونهم فى مهمتهم . . ومضى بعض الوقت تمكنوا خلاله من تصفية كل ما على السفينة وتركوها مجرد قطعة خشبية تطفو فوق سطح الماء . . وقبل أن يغادروها استدعى زعيم القراصنة ربان السفينة ، وقال له :

– اذهب ، وقم بصفقة جديدة . . وثق أنك عائد إلينا حتماً . وسنشكر لك جهدك الكبير . . وإلى اللقاء . .

عاد القراصنة فى نشوة إلى سفينتهم ، ورفعوا الدعامات الخشبية ،

وأبحروا مبتعدين ، وأنشودة نصر وظفر تنطلق عالية من حناجرهم ، وبدأت عملية إحصاء الأسلاب وتوزيعها تحت إشراف القبطان وقد وقف فوق مكان عال . . و « رحمة » لا يكاد يصدق هذا الذى جرى تحت سمعه وبصره ، ويظن نفسه فى حلم عميق شاهد فيه سفينة السندباد وقد هاجمها « الأباليس » . . ولكن ها هم أولاء حوله ، يرقصون ويغنون ، ويقتسمون الأسلاب التى حصلوا عليها فى فرح وبهجة . .

وأيقن « رحمة » أن كل ما حوله واقع حى حين ناداه زعيم القراصنة « إنه لم ينسه فى زحمة إحصاء الأسلاب وتوزيعها ، لذلك منحه قرطاً ذهبيًّا صغيراً ، علقه فى أذنه بطريقة همجية أدمتها وآلمته كثيراً ، ولكن صيحات وضحكات القراصنة غطت على صرخته ، وارتفع هتافهم وتصفيقهم وزعيمهم يقول له :

– ها أنت ذا قد أصبحت قرصاناً ، بحلقة ذهبية فى أذنك . . مثل كابتن كيد ، وبيريك ، والأمير مهنا . . المهم أن تتفادى مصيرهم . .

وحمله القبطان بين يديه ، ورفعه عالياً ، ثم قذف به وسط البحارة ، وتلقفوه بين أيديهم ضاحكين . .

ولم تنم السفينة فى هذه الليلة ، بل ظلت ساهرة تحتفل بهذه المناسبة السعيدة ، وقد أضاءت المشاعل جنبات المكان ، وانعكست أنوارها

على المياه تسبح معها وهى منطلقة تجاه البحرين . .

وقرب الفجر وصلت السفينة إلى هذه الجزر الرائعة التى فتنت « رحمة » حين تطلع إليها ليراها لأول مرة ، ولكى تسحره بقية عمره . . ونزل إلى الماء ليسبح ، وليشرب من العيون التى تنفجر فى أعماق البحر ، وازداد إيماناً بقدرة الله الذى يخرج الحى من الميت ، والماء العذب من قلب الماء المالح . .

شيء واحد ، تألم له « رحمة » فى البحرين . . ذلك هو أن أهله العرب كانوا يُسامون الظلم والخسف ، ويلقون العنف والاضطهاد على مدى سنين طوال . . جاءهم البرتغال ، وأخذوا أرضهم وشيدوا عليها الحصون والقلاع . . ولكنها لم تحمِهم حين قدم الأمير شيراز عام ١٦٠٢ من الشط الشرقى للخليج لكى يطرد البرتغال ، وعلى مدى من الزمان كان الصراع بين العثمانيين والفرس عنيفاً من أجل البحرين ، وشاركت فيه عمان إلى أن استتب الأمر أخيراً فى يد « نادر شاه » .

ولقد ظل « رحمة » طيلة وجوده فى هذه الجزر الساحرة يفكر فى مستقبلها . . وتذكر أقاصيص عن « خالد بن الوليد » و « سعد ابن أبى وقاص » و « القادسيَّة » . كان يرويها عمه الذى كان يتردد على البصرة بحراً ، وخاله الذى يسافر إلى دمشق برًّا . . وكان كلما تنقل بين هذه الجزر هتف فى نفسه :

– أين أنت « يا خالد » ؟ . . وأنت « ياسعد » ؟ . . من يعيد « القادسية » من جديد ؟

ولقد ظلت هذه الأسئلة تتردد فى ذهنه لسنوات طويلة ، كان يبحر خلالها من الخليج إلى بحر العرب ، إلى المحيط الهندى . . ومن شواطئ الخليج إلى شواطئ أفريقيا ومن جزر هنا إلى جزر هناك . .

وكان خلال هذه الرحلات التى طالت يتذكر بلده « الكويت » وأهله . . إنه يحن إليهم كثيراً ، ويشتاق إلى حياته معهم . . ولكن : كيف السبيل إليهم ؟ . .

قضى « رحمة » ليالى طوالا يفكر فى حاله ، ويدبر أموره . . خطر له أن يهرب عندما تصل السفينة إلى البر ، غير أن الجزر التى يرسون عندها قاحلة ، لا ماء فيها ولا نبات ، ولا سبيل للوصول منها إلى بلده . . إذن ، فلندع الأمر للظروف ، فقد تحقق هى وسيلة العودة إلى الديار ، إن كان فى العمر بقية ، على ظهر هذه السفينة التى يترصدها الموت فى كل رحلة . . و« رحمة » فى لحظة لقائه مع الصباح تلك اللحظة التى يحبها ، يحمد الله كثيراً ، على أنه مازال حيًّا . . إن بحارة هذه السفينة فى صراع مع الأمواج والعواصف والأنواء . . وفى صراع مع السفن الأخرى التى تمخر عُباب البحر . . وفى صراع مع بعضهم بعضاً حول الأسلاب . . وكل واحد منهم فى صراع مع نفسه حول هذا

الذى يفعله عن غير رضاً ، وبلا اقتناع . . يالها من حياة تتلخص فى كلمة واحدة هى :

« صراع » . .

* * *



٤

الريان الجديد

امتشق كل منهما سلاحه . .

صراع جديد ، وقف البحارة يرقبونه باستخفاف فى بداية الأمر ، فقد ظنوا أن نتيجته معروفة مسبقًا . . التفوا حول « رحمة » الفتى الشجاع ، و« عبدون » القرصان الرهيب ، وهما ملتحمان فى معركة عنيفة ، كان من الواضح أنها لابد أن تنتهى بمصرع واحد منهما ، هو أضعفهما بالطبع . .

إن بساطة « رحمة » أغرت هذا القرصان الخبيث ، فراح يداعبه فى سخف ويضايقه محاولا سلب نصيبه من الغنائم التى حصل عليها من عمليات الإغارة على السفن ، مع أن نصيب « رحمة » كان ضئيلا هزيلا ، ولكنه الطمع والجشع . . . ولم يكن « رحمة » يسمح لزملائه بالتمادى فى العبث معه ، ويحاول أن يبدو جادًّا ، ليغطى على صغر سنه ، ونحافة قوامه ، وتواضع مظهره ، ولم يتحمل أسلوب « عبدون »

ولم يطق تصرفاته حياله ، وبرغم إدراكه أن هذا القرصان أقوى منه وأكثر خبرة فإن ذلك لم يحل بينه وبين أن يعلن عليه الحرب ، وأن يدخل معه فى معركة قد لاتكون فى صالحه ، فإن خصمه فى استطاعته أن يورده مورد الهلاك ، أو يجرحه جرحًا كبيرًا إذا هو ترفق به ، ولن يترفق . .

فُرضت المعركة على « رحمة » وعليه أن يصمد ويقاتل . . وقد دافع عن نفسه فى جسارة وبسالة ، ونجح فى إفساد هجمات خصمه ، الأمر الذى جعله يستشيط غضبًا ، ويخور كالثور وهو ينقض على الفتى الصغير النحيف ، فإذا بهذا يفلت من بين يديه ويعاجله بضربة عنيفة من سلاحه . . ويطيش صواب « عبدون » ويفقد اتزانه ، ويبدأ « رحمة » فى الهجوم عليه ، ويضطر القرصان للتراجع ، وشدد الفتى الهجوم ، وقد بدأت المعركة تسترعى الالتفات وتجتذب الأنظار ، وتشيعت جماعة قليلة للفتى الصغير الذى واصل الهجوم فى شجاعة منقطعة النظير ، وضغط على خصمه بين التهليل والتصفيق . . واحتدمت المعركة بالغة العنف والإثارة ، وينجح « رحمة » فى ضرب سيف خصمه ، ويسقط السيف قرب حاجز السفينة ويتراجع « عبدون » بسرعة وجزع ، فإذا به يصطدم بالسور عند قطعة متصدعة منه ، فينهار به إلى الوراء ويسقط فى الماء ، ويغالب الأمواج وتغالبه .

وفوجئ البحارة بالفتى « رحمة » يلقى بسلاحه ويقفز وراءه فى الماء ، ويتصورون أنه قد فعل ذلك من أجل مواصلة القتال ، ولكى يغرق « عبدون » ولكنهم ذهلوا إذ اكتشفوا أن الفتى كان يصارع الأمواج من أجل إنقاذ غريمه ، إذْ إن سقوطه المفاجئ لم يدع له فرصة يستعيد فيها نفسه . . ونجح الفتى فى مهمته ، وعاد بغريمه إلى السفينة قبل أن تبتلعه الأمواج . .

وأصبحا صديقين . . وماأقل الأصدقاء فوق ظهر هذه السفن . . إنها تمضى لتسلب وتسرق . . وقد تنضم فى قوافل تتألف الواحدة من عشرين سفينة تنتشر كأسنان المشط ، لاتبعد الواحدة عن الأخرى سوى خمس أو ست عقد ، مما يجعل وجود الطريدة مؤكدًا ، لأنه مامن مركب تجارى يمر إلا ويصادف إحدى هذه السفن ، وتنطلق إشارات من النور والدخان متفق عليها ، فتتجمع زميلاتها وتطوق المركب التجارى وتأخذ كل مافيه وتطلق سراحه ، ليبدأ الصراع فيما بينها حول الأسلاب . . ثم يبدأ الصراع بين بحارة كل منها . . ولهذا امتلأت حياة « رحمة » بالأحداث ، وحفلت بالإثارة ، كل يوم يحمل إليه جديدًا ، وكل ساعة تقدم له مفاجأة ، لذلك كان دائمًا أبدًا فى منتهى اليقظة لكل مايجرى حوله . . إن دستور الجميع هو السلب والنهب ، والحرب والقتال . . وتتخرب الجماعات ، وربما يفشل

القبطان فى إصلاح ذات البين ، ويضطر إلى عقاب البعض ، ويقرر طردهم من على السفينة عند أقرب جزيرة . . وقبل أن يصلوها قد تعود المياه إلى مجاريها . .

وكان « رحمة » محور أحداث عديدة جرت على ظهر السفينة التى أبحر فوقها منذ المطاردة الأولى المثيرة فوق أول سفينة . . حتى المعركة الأخيرة العنيفة مع « عبدون » . . وكانت هذه الأحداث تحمل إليه انتصارات تؤكد مكانته بين البحارة ، وتعلى من شأنه ، وقد نجح فى خلال هذه السنوات فى كسب العديد من الأصدقاء من بينهم . . ولكن صداقة أوثق ربطته بالمياه والجزر ، والسفن ، وظلت هذه الصداقة تربطه بها بقية عمره .

عرف « رحمة » الكثير عن شواطئ الخليج ، ففى منخفضاته ومستنقعاته انتشرت المخابئ التى يلجأ إليها البحارة هربًا من السفن القوية . . وفى سواحله الجنوبية الشرقية لم يكن عمق المياه يتجاوز الثلاثين مترًا ، وهو كثير النتوءات والحواجز الرملية والجزر الصخرية . . وقد أعجب « رحمة » بهذه البقعة ، وتعرف على بعض من سكانها الذين سموا « القواسم » وكانوا لايوقرون سفن أوربا ، ولايحترمون سفن الشرق ، إذ كانت لهم سفنهم الحربية المصفحة التى تجاوز عددها السبعين فضلا عن ثمانمائه سفينة صغيرة . . ، كانت تتحدى أكبر

البوارج وأحدثها تسليحًا . . وكان هؤلاء القواسم لايرحمون ، ولايُرحمون ، وقد رآهم « رحمة » يرقصون ويغنون أغانى الموت وهم يشهرون أسلحتهم للقتال ، ويبعثون الرعب والخوف فى أعدائهم ، بل إنهم كانوا يرفضون الفدية ويعتبرونها سرقة للأحياء ويصرون على أن يرثوها عن أصحابها بعد أن يفقدوهم الحياة .

وتعرّف « رحمة » إلى الجزر ، عشرات منها ، لم يكن يستقر فى إحداها ، وهى تذكره دائمًا بجزر السندباد ، تنتظره وراء كل صخرة من صخورها مفاجأة ، والموت يترصد له عند كل منعطف ، عرف جزر البحرين ، وزارها أكثر من مرة . . ومر بجزيرة « هرمز » عند مدخل الخليج ، وأعجبته كثيرًا ، وشاهد فيها تجارًا من كل مكان ، مراكبهم تمتلئ بالتوابل والأحجار الكريمة ، والعاج ، والأقمشة النادرة من صوف وحرير . . ومن مرفأ هذه الجزيرة كانت السفن تنطلق حاملة كل شيء إلى شتى أنحاء العالم . . غير أن الحرارة فى هذه الجزيرة لاتطاق ، وتزيد منها الشمس الساطعة والسد الجبلى الذى يقفل كل منفذ للهواء والرياح ، وكثيرًا ماتهب من الصحراء عواصف ساخنة ملتهبة حاملة الرمال ، ويضطر سكان الجزيرة الى الهرب والإلقاء بأنفسهم فى الماء ، ينزلون فيه حتى رءوسهم انتظارًا لتوقف الرياح . .

أما السفن فقد أضحى « رحمة » خبيرًا بكل مافيها ، فإنها دنياه

وحياته . . داره وبيته ، حاضره ومستقبله ؛ هي كل شيء بالنسبة له ، يدب فوقها نهاره ويتوسد أخشابها ليلا ، وهي بلا مسامير على الإطلاق ، بل يدقونها بأوتاد خشبية ويخيطونها بخيوط مسحوبة من قشرة جوز الهند ، وهي خيوط متينة لا تأكلها المياه ، ومع أن هذه السفن بدائية سيئة الصنع فإنها تستطيع احتمال العواصف والأنواء ، مثل بحارتها . .

ولقد تقلب « رحمة » فوق عديد من هذه السفن . .

ومضت الحياة بالفتى البحار ، لا يمر يوم إلا ويشارك في معركة ضد سفينة ، أو ضد زميل ، وأضحت المعارك جزءًا لايتجزأ من حياته اليومية كالأكل والشرب والنوم . . وقد يستغني عن إحداها ولكنه لايحيا بدون معارك ، تصهره وتبلور أفكاره واتجاهاته وأهدافه . . وكان عليه أن يخطط لمستقبله الذي لابد أن يبنيه فوق هذه الأمواج ، ووسط تلك العواصف ، مستفيدًا من مواهبه الطبيعية ، وخبراته المكتسبة ، وقد جمع ذلك من حوله بعض البحارة . . فإنهم فوق السفينة يكونون جماعات صغيرة متنافسة متصارعة ، تستهدف كل منها الحصول على أكبر قدر من الغنائم إذا ما أغاروا على سفينة . .

وتكررت حوادث الإغارة . . إنها قد تختلف في التفاصيل ، إلا أنها كانت جميعها متشابهة في بدايتها ونهايتها ، وليس بينها مايستحق أن

يروى ، إلا أن واحدة من المعارك انتهت لغير صالح سفينة القراصنة ، إذ هاجمتها سفينة تحرسها بارجة لم يروها ، فأنزلت بهم ضربة قاصمة ، تعلق على أثرها « رحمة » بلوح من الخشب ، والموت يتراءى له وهو يطفو فوق الأمواج . . وأمدته ذكرياته عن السندباد بزاد كبير من الأمل ، ولقد تحقق حين التقطته سفينة تجارية ، اهتز « رحمة » طربًا حين اكتشف أنها تضم بحارة عربًا . . .

قضى « رحمة » بعض الوقت فوق ظهر السفينة ، استراح فيه وتناول طعامه راضيًا سعيدًا ، ولكن سرعان ما تبددت الفرحة حين اكتشف أن القبطان التركى الأصل ، يريد أن يبيعه فى سوق النخاسة عند أقرب جزيرة . . وغضب « رحمة » لذلك أشد الغضب ، وصاح فى البحارة :

هل أنقذتمونى من الغرق ، لتقتلونى بالعبودية ؟

سكت البحارة فى حيرة ، فهم لايملكون لأنفسهم شيئًا ، ولايستطيعون أن يرفعوا صوتهم فى وجه القبطان العثمانى من أجل أنفسهم ، فهو لايمنحهم أكثر من ساعات قليلة للنوم طيلة الليل ، كما أنه يستدعيهم خلالها فيفزع الواحد منهم ، ويجرى والنوم يملأ أجفانه ، وقد لبس إحدى نعليه والأخرى فى يده ، خشية أن يتأخر فيعاقبه . . وهم يتلقون أوامره الصارمة بلا مناقشة ، لا يكادون يسمعون مايقول

بسبب زمجرة الرياح التى تعصف بالواحد منهم وهو متعلق بالصارى كالقرد ينشر القلع أو يطويه ، ويهبط فى لمح البصر لكى يجذب المجاديف بقوة وقد تجمدت الدماء فى عروقه من البرد ، وتتأرجح السفينة فتلقى به فوق خشب المركب أو فى قاعها ، والصرخات تنطلق بلا مجيب . .

مضت السفينة فى عرض البحر ، وكانت تنتظر « رحمة » أكثر من مفاجأة . . لقد انتشل البحارة رجلا كاد يغرق . . واكتشف « رحمة » أنه رفيقه وصديقه « عبدون » وكانت فرحته به عظيمة .

وذات صباح فوجئ البحارة بطائر أسود يحوم فوق السفينة . . وذهل « رحمة » لأن الجميع انهاروا لدى رؤيته ، ومعهم « عبدون » الرهيب . . وراح يسألهم عن السر فى قلقهم وخوفهم فإذا به يسمع لأول مرة فى حياته عن قصة أفظع سفينة قرصنة عرفها الخليج ، ويسمع عن صاحبها الذى يطلق هذا الطائر الأسود ، كنذير للمراكب التى سيهاجمها لكى تستسلم قبل أن يصل إليها . . وكان ظهور هذا الطائر معناه أن السفينة سوف تنهب ، وأنها وبحارتها سيكونون طعامًا للأسماك . .

سأل « رحمة » صديقه « عبدون » :

– لماذا لم أسمع من قبل بحكاية الطائر الأسود ؟

أجابه « عبدون » :

– البحارة يخافون من سرد روايتها . .

– ألا يمكن التغلب على سفينته ؟ .

– مستحيل . . ومقاومتها تزيد قبطانها ضراوة ووحشية . .

جرى « رحمة » يسأل القبطان التركي فى قمرته عن خطته ، فإذا به يقول وهو يرتعد ويكاد يبكى :

– لابد أن نستسلم . .

سأله « رحمة » :

– ألا نستطيع المقاومة ؟

– معنى ذلك أن نموت جميعًا . .

– ليتكم تركتمونى أغرق ، كان ذلك أشرف . .

غادره « رحمة » وهو يكاد يتمزق غيظًا وضيقًا ، وكان يفكر بسرعة ، وسفينة القراصنة تلوح من بعيد كنقطة سوداء ، تقترب لتلحق بهم . .

وفى سرعة استدعى « رحمة » إليه « عبدون » ، وبقية بحارة السفينة ، وسألهم .

– هل ترضون بالاستسلام ؟

قالوا : وماذا فى يدنا ؟

قال « رحمة » :

– عندى خطة . . آمل أن تنجح . .

قالوا : لو أنها نجحت ، سوف نجعل منك ربّانًا لسفينتنا . .

قال « رحمة » :

– هذا آخر ما أفكر فيه . .

أسرَّ « رحمة » فى إيجاز شديد بخطته إلى البحارة ، فاستقبلوها فى اهتمام شديد ، وأعجبوا بها كثيرًا ، وأقسموا بين يديه أن يبذلوا أرواحهم من أجل أن تنجح . .

وعندما اقترب مركب « الطائر الأسود » ارتفعت الراية البيضاء فوق السفينة التى تحمل « رحمة » وانعقدت فوق السفينتين سحابات من الدخان نتيجة قذيفة أطلقها القراصنة فى الفضاء ، ليهتز معها البحر والسفينتان . . وكان واضحًا أنها أُطلقت للإرهاب لاأكثر ولاأقل . . وسرعان ماالتصقت السفينتان ، ووصلت بينهما دعامات خشبية اعتلاها القراصنة ، وهم يصرخون فى نشوة ، وينطلقون كالصقور الجارحة من سفينتهم إلى السفينة المستسلمة التى وقف بحارتها قرب الدعامات فى صمت وحزن ، منكسى الرءوس لاتبدو عليهم أى رغبة أو استعداد للمقاومة ، يرقبون فى أسى وخوف القادمين عليهم . . كانوا صفر الشعور بيض الوجوه ، زرق العيون ، على قسماتهم ملامح الشرّ

والحقد والبغض ، وتنطلق من صدورهم صيحات متوحشة ، وهم يلوحون بالسيوف بين أيديهم ويقفزون واحدًا بعد واحد إلى السفينة السليبة ، ويجرون إلى غرفها وقمراتها وبضائعها فى جشع وطمع ، أعمى عيونهم عن « رحمة » وصحبه .

تسلل « رحمة » إلى الدعامات الموضوعة بين السفينتين ، ومن خلفه عدد كبير من البحارة العرب . . وما إن أصبحوا فوق سفينة الطائر الأسود حتى رفعوا الدعامات فى لمح البصر . . وانقضوا على من فيها من قراصنة وبحارة ، وألقوا بمن قاومهم فى البحر ، وحبسوا الباقين ، ثم وقفوا وراء المدافع المصوبة إلى سفينتهم ، وأطلق « رحمة » قذيفة مدوية ، سقطت فى البحر لتثير الأمواج والرعب فى قلب القراصنة ، الذين فوجئوا بأن « رحمة » قد استولى على سفينتهم القوية ، وتخلص من رجالها . .

« بهت » الطائر الأسود وقراصنته ، واضطروا لأن يَدَعُوا كل ما وصلت إليه أيديهم ليرفعوها فى الهواء تحت تهديد مدافعهم . . وهم أكثر الناس دراية بها ، فقد جهزوها بالذخيرة التى يمكن أن تنطلق فى ثوان لتصيب صدورهم . .

لقد أسقط فى يدهم ، و « عبدون » يمسك بالطائر الأسود ويقيده ، والبحارة العرب يقبضون على القراصنة الأوربيين ، ويلقون

بهم سجناء . . مع القبطان التركى الأحمق الذى لم يستطع أن يستوعب هذا الذى يجرى من حوله . .

وبعد أن استتب الأمر ، راح البحارة العرب يلوحون فى فرح بالغ يحيون الريان الجديد الجرىء . . « رحمة بن جابر » . .

* * *



٥

الملاّح المحارب

رست سفينة الفتى « رحمة » ورجاله ، قرب المكان الذى أقلعت منه سفينة القراصنة منذ أعوام بعيدة وهى تحمل « رحمة » الصغير الذى دل رجالها على مكان عين الماء العذب .

وعندما هبط الفتى إلى أرض بلاده ، مضى يستعيد ذكرياته مع كل شبر من الأرض : هنا ملعب طفولته ، وهنا مرعى أغنامه ، وهنا كان يسبح على الشاطئ ، ومن ذلك المكان كان يركب السفن مع أعمامه ، وعبر هذا الطريق كان يصل إلى بيته ، لقد قطع هذا الطريق بخياله ، فى يقظته وأحلامه ، عشرات المرات ، وهو على ظهر السفن التى كانت تمخر به عباب الماء ، وكم تمنى أن يضع قدمه على هذا الطريق طيلة سنوات غيبته . وها هو ذا يحقق أمانيه ويخطو على الأرض الحبيبة خفيفًا سعيدًا . وفى لهفة شديدة إلى لقاء أمه بعد غيبة طويلة .

ها هو ذا البيت أخيرًا . .

لم يتغير شيء ، فيا للحياة ! النخيل كما هى ، والرمال ، وصوت العنزات ، كأنما هو عائد من رحلة قصيرة إلى دار عمه ، أو إلى بيت خاله .

واندفع رحمة إلى أمه يعانقها ويبكى بين ذراعيها ، والدموع تتساقط من عينيها دون أن تقوى على التعبير عن نفسها بالكلمات ، وبعد فترة مضت الأم تردد فى حنو وحب :

– رحمة . . رحمة . .

وتلقته أخته بنفس الحفاوة والحماس والحب والشوق والدموع ، ولكن أمه احتضنته من جديد ، ثم أجلسته إلى جانبها وهى تضع ذراعيها حول كتفه وتردد :

– ولدى . . ولدى . .

ومضى وقت طويل قبل أن تهدأ الأم وتثوب إلى رشدها ، وتسأل ولدها عن حاله ، وعن سنوات غيابه ، ما أكثر ما تريد الأم أن تسمع ، وما أكثر مايريد الابن المغامر أن يخفى من أحداث ذكرياته . .

وتكلم « رحمة » قليلا ، وسمع أخبار الأم والأخت عن الحياة الرتيبة الهادئة على الرمال حيث لا أمواج ولاأنواء ، كل ماهناك أن شقيقته ستتزوج من « خليل » ، وفى نيتها أن تغادر المكان معه بعد أن رحلت الأسرة كلها إلى جانب من قطر . .

وكان لقاء « رحمة » بصديقه القديم « خليل » كله شوق ولهفة ، وتبادلا الأخبار فى صدق وصراحة ، وعرف « رحمة » أن الأسرة الصغيرة قد رحلت مع القبيلة – آل خليفة – إلى قطر ، وأصرت أم « رحمة » على البقاء فى انتظار عودة ابنها . . كانت واثقة من أن ابنها سوف يعود إليها يومًا ما ، ولكن القبيلة لم تنتظر بعد أن ضاقت بحكام البصرة الجدد ، القادمين من شرق الخليج ، مهددين بغزو بلادهم وقتلهم ، واختطاف نسائهم وأطفالهم وبيعهم فى أسواق النخاسة .

لقد رفضت القبيلة الحياة تحت نير التهديد والوعيد ، وحملت أمتعتها تاركة الموطن إلى أرض جديدة . أما أبناء عمومتهم فقد أعلنوا أنهم سوف يبقون حيث هم ، وسوف يدافعون عن الأرض والعرض ولن يستسلموا للغزاة من الفرس .

وقال « رحمة » : كل منهما على حق . فالذين تركوا البلاد بحثًا عن أرض أخرى أكثر أمنًا واستقرارًا ، والذين آثروا البقاء دفاعًا عن أرض الأجداد ، كل منهما كريم النفس حر الضمير .

وقال « خليل » : ربما كان الذين يفضلون البقاء على حق مثلما نحن على حق فى الرحيل ، فلو أننا رحلنا جميعًا عن أرض الوطن ، لحققنا لهم غرضهم .

وجاءت أخبار من الذين رحلوا – إنهم حيث استقروا مهددون

بنفس الغزاة لقد جمع الراحلون الأهل والأصدقاء والأعوان ، ولكنّ الأعداء موجودون فى البحرين تشدهم إلى الخليج لآلئه الثمينة ، وهم يريدون البقاء فيها إلى الأبد . و « رحمة » يتحدث إلى صديقه القديم « خليل » عن الخليج ، ويستعيد ذكرياته عن الجزر التى زارها وغامر على شواطئها .

– ما أجملها وألوانها تتبدل ، وهى تتوهج فى مهرجان من الألوان الساحرة ! . فهى خلال النهار خضراء بلون الشجرة ، صفراء بلون الذهب ظهرًا ، داكنة بلون الرماد عصرًا ، حمراء بلون النار مساءً . . والمياه زمردية ، والسماء بنفسجية ، ومدينة المنامة بيضاء ، والسفن ترفع أعلامًا زاهية . . وأنت تشعر بأن هذه الجزر تسترعى اهتمام المبحرين فى الخليج كأنها واحة بحرية ظليلة تروى ظمأ المسافر وتمنحه الراحة التى يستطيع بعدها مواصلة السفر .

وغمغم « رحمة » ، وهو يمسح بيده على مساحة كبيرة من الرمال :

– ليتها تعود إلى وجهها العربى .

ثم مضى يخط بأصبعه ويرسم دون أن ينبس بكلمة واحدة ، وقد غفل تمامًا عن « خليل » الذى جلس يرقبه صامتًا معجبًا ، ومضى بعض الوقت قبل أن يرفع « رحمة » رأسه ، ليقول وهو يشير إلى الخطوط والرسوم :

- هذه هى جزر البحرين . . إنها ست وعشرون جزيرة . .

خليل : أتذكر مواقعها كلها ؟

رحمة : بالطبع . . كانت سفن القراصنة تلجأ إليها .

خليل : أتتصور أننا نستطيع تحريرها ؟

رحمة : ربما . . لاسيما أن الفرس مشغولون بما يجرى فى بلادهم .

خليل : من خططنا أن يتعاون آل الصباح من هنا ، من الكويت مع أبناء عمومتهم هناك فى قطر .

رحمة : سفن الأعداء أقوى سلاحًا وأسرع سيرًا ، ومدافعهم على الشط بعيدة المرمى عنيفة مدمرة .

خليل : ومن ورائهم حكومة ودولة وجيش ، ثم الأوربيون . . هل يرضون عن هذا الذى نفعله ؟

رحمة : ومسقط وعمان ؟

خليل : المهم أن تشارك مع بحّارتك فى هذه المعركة .

رحمة : إن سفنى وبحارتى فداء لبلدى ، وأنا على استعداد لأن أضحى بعمرى فى سبيل وضع حد لمهزلة وجود أجانب دخلاء على شطنا العربى من الخليج . .

وبدأ « رحمة » يشرح لصديقه خطته فى إسهاب وباهتمام كبير بالتفاصيل ، كان واضحًا أنه لايريد أن يترك شيئًا للمصادفة . وقد

ذهل « خليل » لهذه القدرة الفائقة ، والبراعة الفذة ، والذكاء الشديد . وأدرك أن السنوات التى باعدت مابينه وبين صديقه قد ساهمت فى خلق شخصية أخرى غير ذلك الطفل الذى غاب عنه زمنًا طويلا ليعود نموذجًا فريدًا .

وعلى صفحة المياه جرى هذا الذى كان يخططه « رحمة » على الرمال ، ورست مئات الزوارق الصغيرة على شطآن جزر البحرين ، فى أماكن خالية من السكان ، وهبط من تلك الزوارق أناس كالأشباح ، وتسللوا فى جنح الظلام مقتربين من القلاع ، يرقبونها من خلف بعض الصخور والنباتات البرية فى يقظة واهتمام .

وأمر « رحمة » رجاله بأن يسكبوا فى البحر مالديهم من مياه عذبة . وكاد الأمر يصعق الجنود من الدهشة ومضوا يسألون :

– لماذا تلقى بالماء العذب إلى البحر؟

فقال « رحمة » فى إصرار : عليكم بالطاعة أولا .

وبعد تردد استجاب الجميع لأمر قائدهم « رحمة » وصبوا الماء الذى يحملونه فى البحر وهنا قال لهم .

– خذوا الماء من عدوكم ، وإلا فلنمت عطشًا . .

وبدأت المعركة ، فإذا سفن من الجنوب الشرقى ومن الشمال الغربى تهاجم تلك الراسية ، فتبتعد هذه لكى تعطى فرصة لمدافع البر ، ولكن

أولئك الذين تسللوا كالأشباح إلى الجزر فى الزوارق الصغيرة مضوا يضربون مدافع الحصون من الخلف فيخرسونها . .

واستفاد « رحمة » من كل خبراته الطويلة المستمدة من مغامراته فى البحار ، ومن دراسته لمواقع الجزر ، ومن فهمه للمد والجزر خلال ساعات النهار المتتابعة ، ويتحرك فى دقة وحرص . ووقفت سفن ثلاث وسط مياه الخليج على شكل مروحة تقطع الطريق على أى معونة أومدد يأتى من الناحية الشرقية . .

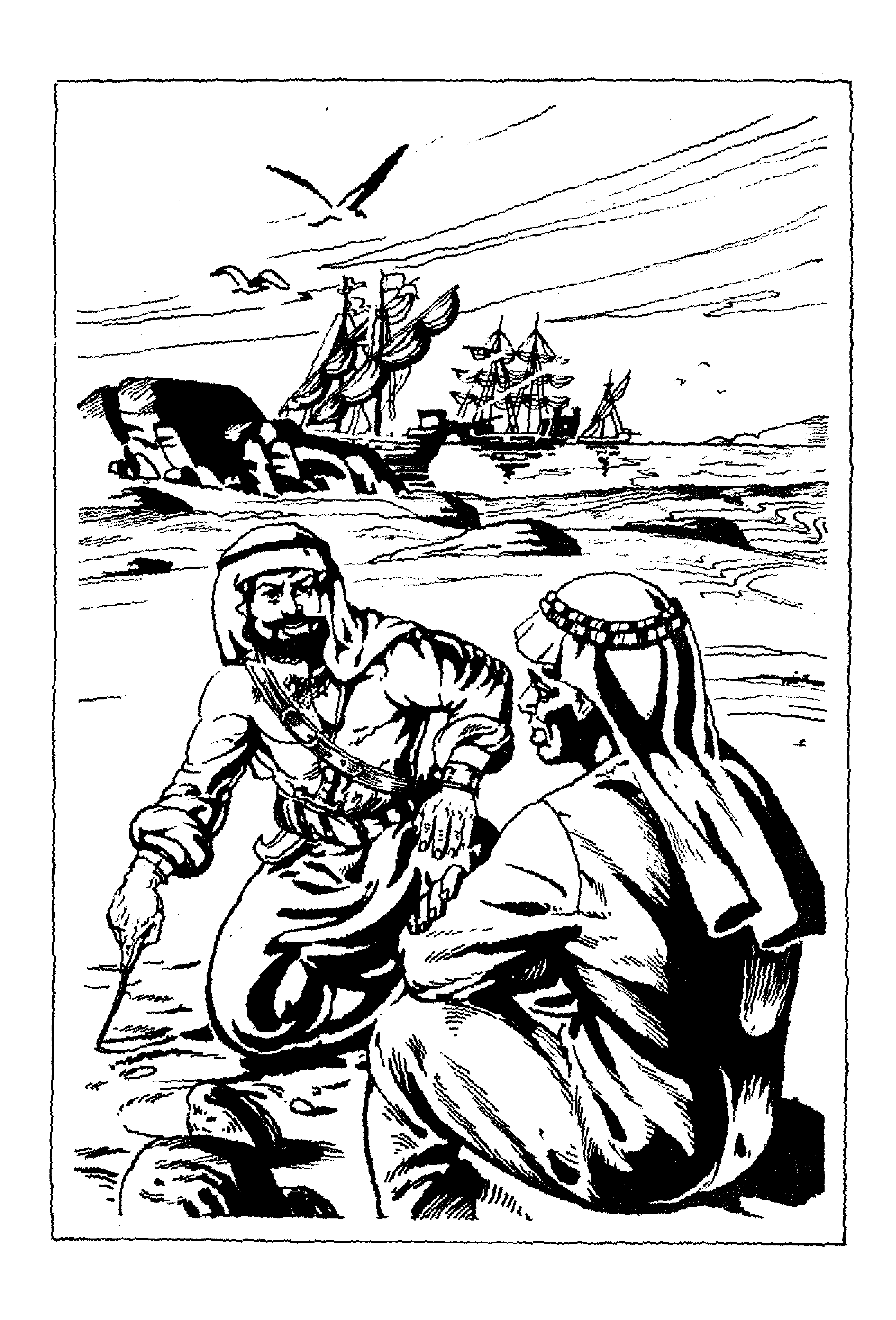
وكان من مهمة بعض السفن العربية أن تجتذب السفن الراسية فى البحرين إلى منطقة يعرفها « رحمة » معرفة جيدة ، ويعرف أن بقاعها صخورًا مدببة ذات أطراف كحد الموسى قادرة على تمزيق أى سفينة ، وكان « رحمة » يحاصر السفن ويدفعها دفعًا لكى تصل إلى هذه المنطقة وتقطع عليها طريق العودة ، فإذا بها بين هول الصخور البحرية وبين نار القذائف المدوية . .

وعندما شعر الفرس بأن لاأمل لهم فى كسب المعركة رغبوا فى تفويت الفرصة على العرب ، وعقد هدنة يلتقطون فيها أنفاسهم . . فما كان منهم إلا أن بعثوا رسولا إلى « رحمة » يعرضون عليه خمسة آلاف قطعة من الذهب راح الرسول يزيد فيها حتى بلغت خمسة وعشرين ألفًا من أجل أن ينسحب بسفنه ورجاله من المعركة .

وغضب « رحمة » غضبًا شديدًا من هؤلاء الرسل الذين يتصورون أن فى استطاعتهم أن يشتروه . . ويعتقدون أنه مجرد بحّار وربان . وقرصان يبيع نفسه لمن يدفع أكثر ، وعندما طلب إليهم أن يكفوا عن هذه المساومة استمروا فى زيادة المبلغ الذى سيدفعونه له ، فما كان منه إلا أن أعلن أنهم لن يعودوا لزملائهم . .

وشدد الهجوم مع رجاله ، غير عابئ بتلك القذائف التى تنهال على سفينته من مراكب أعدائه ، وقلاعهم . . وكان يتعرض للموت فى كل لحظة ، إلا أنه كان قد آل على نفسه أن يقاتل هذه المعركة بكل مايملك ، لذلك رفض العودة إلى الخطوط الخلفية ، وظلت سفينته فى المقدمة : تصيب وتُصاب . . وهو يشارك جنوده فى القتال ، ويتقدمهم إلى الأرض بالسلاح الأبيض ليطهر الطريق أمام الزاحفين ، وينجح فى ضرب الأعداء ضربات قاصمة ، ويحسون أنه يقاتل كأنه جيش كامل . . فتتحول قوات كثيفة لمقاومته ، ومحاولة قتله ، ويتفاداها ببراعة ، ولكنها بعد أن فقدت المئات عن طريق سيفه البتار تستطيع أن تضرب تجمعًا يضمه ، ولايبدو من بين أفراده . . وأصابته شظية فى وجهه أفقدته إحدى عينيه ، وزادته إصرارًا على مواصلة القتال إلى أن يُجلى أعداءه عن هذه الجزر الساحرة .

واستمر يقاتل . .



وانجلت المعركة عن نصر مؤزر للعرب القادمين من قطر والكويت . . لقد دفعوا مئات الشهداء ثمنًا للنصر ، كما دفعه أجدادهم ثمنًا لانتصاراتهم فى أجنادين واليرموك والقادسية . .

وبحث الجميع عن « رحمة » . .

كان قد باعد ما بينه وبين بحارته وجنوده وأصدقائه ، يذرف الدمع من عين واحدة ، بعد أن سلبته المعركة إحدى عينيه . . وكان يتطلع إلى المرآة الصغيرة ، وينظر إلى صورته فيرى وجهه الذى شوهته الجروح ، وزاده فقد عينه تشويهًا على تشويه . وهو ينظر ويتأذى ويبكى فى حين كان الجميع يبحثون عنه ليحملوه فوق الأكتاف ، وليجعلوا منه رمزًا للبطولة والجسارة والذكاء . أما هو فكان يتذكر كلمات ذلك العرّاف العجوز ، ذى اللحية السوداء الكثة ، والعينين اللامعتين الذكيتين ، والوجه الأسمر الباسم ، الذى حدق فيه لحظات قبل أن يقول له .

– يا « رحمة بن جابر »

عين ماء تقودك إلى الماء

تفقد العين وتسود الماء

وغمغم « رحمة » فى حزن وهو قابع فى عزلته :

– هأنذا قد فقدت عينى . ماذا تُجدى سيادتى للماء ؟ . . يا للنبوءة .

٦

بنت السلطان

قالت الأم :

– لقد كُتِب علىَّ يا « رحمة » أن أستقبلك يا ولدى لأودعك .

ابتسم « رحمة » ، وقال :

– هذه هى حياة البحارة . .

– لن تطمئن نفسى وأنت بعيد بين يدى هذا الوحش الذى تسمونه بحرًا . .

ضحك « رحمة »، وهو يهمس :

– لم يعد وحشًا بالنسبة لى . . إنه صديق ورفيق . . بل أنا سيده . .

– ولكننى أريدك أن تستقر . .

– من أجل هذا جئت . .

هتفت الأم :

– حقًّا ؟ . .

– نعم ، أريد أن أحقق أحلامى . . وأ . . وأتزوج . .

– ممن ياولدى ؟

– من . . بنت السلطان . .

– ماذا ؟ . . بنت السلطان ؟ . . إنك لم ترها . . ثم . . إن هناك أخبارًا تقول إن شابًّا من سادة بنى كعب سوف يخطبها ، وسوف يأتى موكب كبير لم تشهد الجزيرة مثله من أجل هذه الخِطْبة . .

كان بنو كعب قد قدموا من شبه الجزيرة وتمركزوا فى شمال الخليج العربى وفرضوا سيطرتهم على منطقة شط العرب ، وبدءوا ينهبون ويسلبون ويقطعون الطرق أمام القوافل بدون أن يستطيع أحد أن يوقفهم عند حدهم . . وقد حاول الفُرس ضربهم ففشلوا ، واستخدموا الأمير مهنا ضدهم ، ولم ينجح ، وزادهم ذلك قوة على قوة فهاجموا السفن الأوربية التى عجزت عن ردهم ، واستنجدت بالعثمانيين الذين لم يكن فى يدهم شىء حيالهم . .

وشهدت المنطقة موكبًا رائعًا نظمه بنو كعب ، وطارت أخباره هنا وهناك ، وكانت هناك قافلة برية تضم عشرات الإبل والخيول ، والمنشدين ، ويمضى معها بضائع مئات من الرجال الأشداء ، لا بسى الدروع ، حاملى الأسلحة ، يضفون عليه سحرًا . . وكان يمضى فى

البحر موكب بحرى آخر ، من سفن ذات أشْرعة ملونة ، عليها بحارة أقوياء ، وكان منظرها فى الليل رائعًا وقد أضيئت مشاعلها . . وتساءل الناس :

– ما خطب هذا الموكب الأنيق ؟

وكانت الإجابة : أن أصحابه فى طريقهم للكويت . . يريدون مصاهرة الشيخ عبد الله . . سنخطب ابنته لواحد من شبابنا . .

كان واضحًا أن هذا الموكب السّاحر يخفى شيئًا ماعن عرب هذا البلد الصغير المسالم . . لذلك اندس وسط الموكب شاب نحيف ، بعين واحدة ، يقظة لكل ما يدور حوله وكانت أذناه مفتوحتين لدبيب النمل ، تتسمع الكلمات من هنا وهناك .

وقد بقى الشاب طويلا بدون أن يلحظه أحد ، فالموكب طويل والهمسات تتعالى ، وتصل إليه ، ليعرف كل شىء . .

وأخيرًا انسل من بينهم قبل أن يفطنوا إليه ، وكان قد أنهى مهمته ، وأدى الدور المطلوب منه . . لقد جاء متخفيًا من أجل أن يعرف حقيقة هذا الموكب والسر فى انطلاقه من شط العرب إلى شاطئ الخليج . .

سمع منهم أنه ليست هناك خطبة ولامصاهرة ، ولم تكن هناك نية

زواج أو نسب ، إنما هي واحدة من الحيل التي كان يلجأ إليها بنو كعب ، ومؤامرة ظاهرها موكب يسعى تحت لافتة ، بمهمة نبيلة ، باطنها غزو مسلح ، لبلد « رحمة » . . بعد أن أصبحت معبرًا لتجارة الشرق والغرب . . بين الهند وسوريا ، عندما استولى الفرس على البصرة . . وقد اختفت الأسلحة فى هوادج فوق الجمال على أنها هدايا ثمينة لأهل العروس .

سارع « رحمة » بعد أن فطن للخدعة الرخيصة التى يعدونها ، وترك الموكب عائدًا للكويت ، يعلن مواطنيه بما يُدبَّر لهم . . فأسرعوا يرتبون صفوفهم ، ويعبئون رجالهم ، ويجهزون سفنهم ، لمعركة طويلة دفاعًا عن الوطن والنفس .

واحتشدت الجموع : الرعاة ، التجار ، البحارة ، صيادو السمك واللؤلؤ . . كلهم يريدون أن يذودوا عن وطنهم . . ورسمت لهم الخطة . . إن عليهم أن يهاجموا سفن شيوخ بنى كعب وزعمائهم فى بداية المعركة ، وأن يفيدوا من الجزْر والمد : فإن سفن بنى كعب لم يكن فى استطاعتها أن تتحرك ، فى حين أن قوارب ومراكب أبناء الكويت خفيفة صغيرة ، فى مقدورها أن تحيط بسفن الأعداء من كل جانب .

مضت سفن الكويت ، وجنودها ، ومعهم الربان « رحمة » بسفنه ورجاله ، يدافع عن وطنه ، وعن حبه العنيف . . وعندما

اقتربوا من موكب بنى كعب رأى الربان الجرىء أن يلجأ إلى نفس أسلوبهم ويحاربهم بذات سلاحهم ، فأعلن أن موكب الكويت يُرحِّبُ بالضيوف ويستقبلهم فى حفاوة . . واندست زوارقه ومراكبه تحمل الأعلام الزاهية البراقة بين سفن أعدائه الضخمة التى كان الربان يخشاها ، لأنه يعرف قيمة مدافعها الكبيرة التى تندفع من فمها القذائف النارية إلى مسافات بعيدة تدمر وتحطم ، وكان هدفهم أن يغرقوا السفن ويضربوا المدينة وحصونها حتى تستسلم أو تهدم فوق أصحابها .

لقد كان لقاء الموكبين غريبًا ؛ كل منهما يتحين الفرصة من أجل أن يوقع بالآخر ، والحرب خدعة . . وعند الرقة – وهى قطعة من البحر قرب جزيرة فيلكا شرقى الكويت – تناقل البحارة كلمة السر المتفق عليها . .

وبدأت المعركة . .

كانت ضارية عنيفة . . السفن الصغيرة تحاور وتداور ، تكر وتفر ، تضرب وتهرب . . وكل أمنيتهم أن تغرب الشمس ، فهم يعرفون جيدًا أن المياه عند الرقة تقل ليلا وقت الجَزْر ، فلا تستطيع السفن الكبيرة والمتوسطة المرور منها . . وكان الأمير عبد الله قد شعر بالقلق ، فإن جنوده وسفنه قد مضوا منذ وقت بعيد ، ولم ترد أخبار من الجبهة طيلة الوقت الذى كان كل من الموكبين يخدع الآخر ،

وأحس الرجل بأن رجاله بسفنهم الصغيرة وأسلحتهم المتواضعة سوف يكونون عرضة للفناء أمام عدو لا قِبَل لهم به ، ولاقدرة على قتاله . . وأدرك أنه قد عرضهم لمهمة ثقيلة ، فوق طاقتهم ، وتزيد على احتمالهم ، وبدأ الندم يتسلل إلى نفسه ، وهاجمته الهواجس ، وراح يفكر فى سبيل ينقذهم عن طريقه من الموت ، ويعيدهم سالمين . .

كان « خليل » — صديق « رحمة » وابن خاله — قد تخلف رغمًا عنه ، ولم يسر مع ركب المقاتلين ، لمرض طارئ ألم به ، وظل طيلة الوقت قلقًا . . يعنف نفسه ويلومها لأنه لم يمض معهم . . فإذا بالأمير يستدعيه ليطلب منه أن يكون رسوله إلى الجنود ليعودوا بدون أن يلتحموا بالأعداء ، إذا كان ذلك فى استطاعتهم . . أو أن يتراجعوا بأقلِّ قدر ممكن من الخسارة ، فإن عدوهم أقوى ، وأسلحته أمضى ، وفرصته للنصر أكبر .

أبحر « خليل » بسرعة ، وكانت المعركة محتدمة ، والجنود البواسل بين كرٍّ وفرٍّ ، يحاولون الوقيعة بجنود أعدائهم . . ووقف « خليل » من بعيد يرقب المعركة قبل أن ينبس ببنت شفة ، وحانت منه التفاتة إلى سفينة « رحمة » . . إنه يعرفها جيدًا من بين مئات السفن . . كانت باسلة مثل ربانها . . تهاجم . . وتداور . . وتحاور . . تقدم . . وترجع . .

نجح « خليل » فى لفت نظر بحارة سفينة « رحمة » إليه ، فعادت إلى الوراء قليلا ، إلى الخطوط الخلفية . . وصعد « خليل » إليها يحمل الرسالة . .

قال « خليل » :

– الأمير يريد أن تعودوا . . . وتكفوا عن القتال . .

هتف « رحمة » : كيف هذا ؟ ولماذا ؟

قال « خليل » :

– هو يشفق عليكم . .

صرخ « رحمة » :

إننا لو تراجعنا الآن لأجهزوا علينا . . لقد فات الوقت .

سأل « خليل » :

– والحل ؟ . .

سكت « رحمة » قليلا يفكر . .

وبعد لحظات هب واقفًا يهتف : وجدت الحل . .

وفى كلمات سريعة تتقاذف من فمه كالحمم . . كأنها قذائف المدافع وطلقات البنادق أوجز خطته . . وهبط « خليل » من فوق ظهر السفينة ، ورجع إلى مركبه . .

وبعد لحظات شاهدت السفن هذه المركب الجديدة ، التى يستقلها

« خليل » ، وقد رفعت راية سوداء ، ومن فوقها يهتف هو وبحارته :

- ياجنودنا . . يابحارتنا . . يارجالنا . .

وأصاخوا السمع ، فإن دوى المدافع يغطى على الكلمات ، وصوت المعركة أعلى من كل الأصوات . . ولكن الرسول كان مصرًّا على أن يبلغ رسالته إلى الجنود المقاتلين . . فاستمر يهتف :

- أميركم عبد الله يقول لكم . . سوَّد الله وجوهكم . . إلى الآن لم تناجزوهم للقتال ؟ . . أتظنون أن المرء يموت قبل يومه ؟ . .

دوت الكلمات بين السفن ، وتناقلتها أشرعة السفن ، وتحدث بها البحارة ، وسرت كالنار فى الهشيم . . وصرخ فيهم « رحمة » :

- إن المرء لايموت قبل يومه . .

وحركت الكلمات همتهم ، كأنها طبول مدوّية . . كأنها قذائف عنيفة . . فانهالوا على أعدائهم فى بسالة ، لاتخيفهم المدافع ، ولاترهبهم القوة ، وزحفوا . . وضربوا . . سفينة تغرق ، وأخرى تهرب ، وثالثة تستسلم ، وزئير رحمة وقذائفه توقع الرعب فى قلوب الأعداء . .

إنه يضرب بلا رحمة . . إنه يقفز فوق سفنهم بلا خوف . . إنه يستولى على سلاحهم بلا رهبة . . إنه يقاتلهم بلا مبالاة . .

لقد ضرب سفينة زعمائهم ، واستطاع أن يوقع بهم أكبر هزيمة . .

وعندما شهد بنو كعب شيوخهم وقد قُتلوا أحبطت همتهم ، وخارت قواهم ، ورغبوا فى الانسحاب ، ولكن سفن الكويت لم تعطهم فرصة لذلك ، كما أن الجزر حال بينهم وبين أن تمضى سفنهم الضخمة فى المياه ، فوقفت مكانها تتلقى الضربات القاتلة المميتة ، بلا قدرة على المقاومة ، ولا فرصة للدفاع عن النفس . . وانسحبت فلولهم مهزومة ، تجرر أذيال الفشل . .

وارتفعت أعلام النصر فوق سفن الكويت ودقت طبوله . .

وعاد الأسطول خفّاق الرايات يسوق سفن أعدائه ، وماغنمه من موكبهم الطويل فى البحر ، فى حين كانت قوافل بنى كعب تسارع بالهرب ناجية بنفسها . . وشقت السفن طريقها فى البحر إلى الميناء .

وكان هناك استقبال رائع حافل للمنتصرين . .

ولكن رحمة لم يشعر بالحفاوة . . كان يفكر فى (بنت السلطان) .

وعاد « رحمة » إلى أمه يسألها :

- ألا يكفى بلائى فى القتال ليكون شفيعًا لى عند السلطان ؟ . .

سكتت الأم لحظة قبل أن تقول :

- يبدو يا « رحمة » أنك تنسى نفسك كثيرًا . .

سألها :

- لماذا يا أمى ؟ . .

قالت :

– حكاية بنت السلطان هذه ، كان يجب أن تنساها . . إن حكايات أهل أبيك عن الأمير ، وبنت السلطان . .

وضحكت وهى تضيف :

– وحكايات أهلى أيضًا ، مازالت عالقة فى رأسك . .

– لماذا لانحقق فى حياتنا مافى حكاياتنا ؟ .

– إننى أتمنى لك يا ولدى فوق ما تتمنى لنفسك . . ولكن طموحك هذا مدمر ، وأخاف أن يطعنوك فى كرامتك وكبريائك . .

– من يجرؤ ؟ .

– قد يقولونها لك فى مواجهتك ، وهم لايعتبرونك فارسًا من فرسان البحر ، ولايعدُّونك بطلا من أبطال التحرير . لست فى نظرهم سوى . . بعين واحدة . .

– ولكننى لست كذلك . .

– أنت تقلدهم . .

– بل أستعيد حقوقنا . . أنا لم أذهب لبحرهم وخليجهم ، وإنما هم الذين جاءوا إلى هنا . . إلى بحرنا وأرضنا . .

– يقولون إنهم جاءوا للتجارة . .

– التجارة ومن بعدها الراية . . إنهم يتجرون بحياتنا . .

ومستقبلنا . . ومياهنا . . وبرنا . . وموانينا . .

– أنت تكرههم .

– بالطبع . . هو ثأر قديم . .

– الذين قتلوا أباك هم العثمانيون . .

– أعرف ذلك . . ولكنّ الأوربيين قتلوا الألوف من أهلى فى البحر . .

– كنا لسنين طويلة فى البر ، ولم نعرفه منذ وقت بعيد . .

– بل عرفناه وسدناه . . وقضى البرتغاليون على سفن أهلنا فى مصر . .

– متى كان ذلك يابنى ؟ . .

– منذ وقت بعيد منذ نحو ثلاثة قرون . . ولكننا لن ننسى . .

– أتثأر بعد كل هذه السنين ؟

– نعم . . إن البحر الأخضر لابد أن ينتقم للبحر الأحمر . .

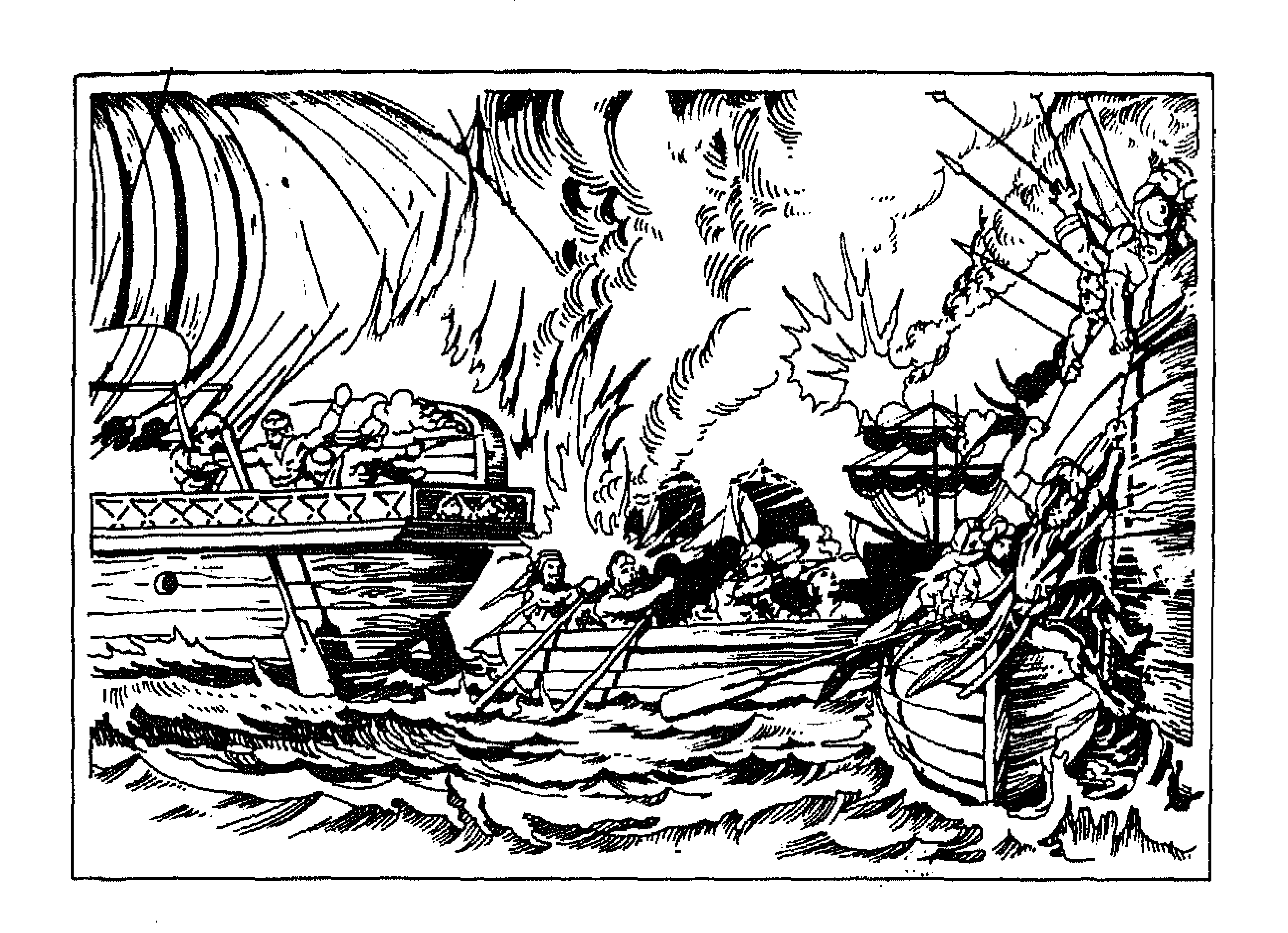
وتسكت الأم . . إنها تتمنى لولدها فوق مايتمنى لنفسه ، ولكنها تعرف أهلها العرب وتدرك عاداتهم وتقاليدهم ، وتشرق فى رأسها فكرة نيرة ، فتقول لولدها :

– ولدى . . هل كنت تحارب بنى كعب من أجل بلدك ، أم من أجل . . بنت السلطان ؟ ويبهت « رحمة » ولايجد كلمة يرد بها ،

وواصلت الأم كلماتها :

- ياولدى . . لست ندًّا لها . . أنت رجل بحر . . أعطيته عمرك . . وتحتاج إلى زوجة تصحبها معك فى سفينتك . .

وطارت الأحلام والآمال . .



٧

الربان الحاكم

خرج « رحمة » من قمرته ، وبجانبه ضيف لا يعرفه البحارة ، ولم يسبق لهم أن لاقوه ، ولو أنهم أنِسُوا إلى طلعته ، وهيئته تدلّ على أنه من كبار التجار أو الأعيان ، وعلى أنه لا صلة له بالبحر ولا برجاله . . وكان وجه « رحمة » يشرق بالفرحة ، ويسطع بالسعادة وهو يخطو على ظهر السفينة يوزع ابتساماته على البحارة ، ويربت ظهورهم ، وينثر عليهم كلمات حلوة لم يتعودوها منه ، وخاصة فى الشهور الأخيرة المثيرة . . لقد قضاها واجماً ، حزيناً ، صامتاً ، غارقاً فى بحار من التفكير لا تقل عمقاً عن تلك البحار التى تمخر سفنه عبابها ، ومن فوقها رجاله الذين تجاوز عددهم الألوف ، يسيطرون على الخليج كله ، ويهيمنون على شواطئه ، ويدفعون ثمن ذلك من حياتهم ، فهم يقاتلون القلق والضيق ، ويعيشون على حافة هوة يتردّون فيها فى أية لحظة . . وهم خلال ذلك كله لا يعرفون لسفنهم ، أو حياتهم ، ميناء

يستقرون عنده ، فلا يكادون يرسون عند شط حتى يقلعوا منه ، فهناك عشرات السفن تترصدهم ، ومئات الأعداء يتربصون بهم ، وألوف العيون ترقبهم ، والجميع ينتظرون تلك اللحظة التى ينقضّون فيها على سفنهم ليغرقوها فى المياه ، تخلصاً منها ومن شرورها ، وقد اتخذ « رحمة » من إحدى الجزر مستعمرة له ، أسماها « رحماتاتيا » . . كانت جزيرة مجهولة حصينة لا قبل لأحد باقتحامها ، ولا قدرة لسفينة على غزوها . . ولكن البوارج الأوربية جاءت ذات مساء لتدك الجزيرة ، ويضطر « رحمة » إلى أن يحمل كل شىء إلى ظهر سفنه وينطلق إلى عرض البحر . . وكانت تلك الضربة واحدة من ضربات راحت توزعها أساطيل أوربا على الموانئ العربية . . فقد ضرب أسطول فرنسا عام ١٧٩٨ الإسكندرية ، ونزلت قوات نابليون إلى مصر ، وبعث إلى سلطان مسقط يطلب إليه إرسال سفنه التجارية إلى السويس . . وفى عام ١٨٠٦ ضرب أسطول إنجلترا رأس الخيمة ، ونزل الجنود إلى الثغر يسرقون وينهبون ، وهم الذين ضربوا الميناء بحجة وقف أعمال السرقة والنهب . . وفى عام ١٨٠٧ قام نفس هذا الأسطول بقيادة فريزر بالهجوم على الإسكندرية ورشيد ، ولكن أبناء مصر قاتلوا المعتدين وهزموهم شر هزيمة . . وسقطت هيبة هؤلاء الجنود ، وأصبح أسطول الإمبراطورية التى لا يغرب عنها الشمس لا يخيف أحداً ، حتى أن

القواسم فى الخليج استولوا على طراد يحرس بعثة إنجليزية إلى بلاد فارس عام ١٨٠٨ . . وذهب الإنجليز إلى الكويت فى تلك السنوات يلوحون بأغصان الزيتون ، وبالرّايات الخفاقة ، يريدون أن يرفعوها فوق تلك الأرض ، لحمايتها . . وكان السؤال : ممن يحمونها ؟ . . وكان السؤال بلا جواب ، لذلك كان الرد عليهم :

لا . . لا حاجة بنا إليكم . .

وخلال كل هذه السنوات ذاع اسم « رحمة » وشاع ، يثير الرعب والذعر فى البحر ، ويقبض الإتاوات من السفن التى تعبر الخليج ، وهو يرفض الإتاوات من سفن أوربا ، ولا يهادنها ويأبى إلاّ أن يطارد سفنهم ويطهر مياه الخليج منها . .

وكان « رحمة » بحاراً زاهداً ، لا يريد لنفسه شيئاً ، فلم تصبح لديه كنوز يخفيها مثل الآخرين ، ولا هو صار ثريًّا أمثل ، بل كان صاحب مبدأ يردده ويغنيه :

– هذه أرضى . . وهذا بحرى . . وأبى ضحى هنا . . وأبى قال لنا . . مزقوا أعداءنا . .

وكانت حياته بسيطة متواضعة ، لا يرتدى إلا اليسير من الثياب ، حتى أنه ما من أحد يستطيع تمييزه عن رفاقه إذا ما وجد بينهم أو سار وسطهم . . فهو لا يضع على جسده إلا جلباباً ، يظل عليه حتى

يستبدله بعد أن يبلى ، فيلقيه ويرتدى غيره . . ويسألونه :

– لِمَ هذا يا « رحمة » ؟

لا وقت عندى لأخلع وألبس . . هذه الأردية لا تجدى . . إنها لن تقينى الرصاص والسيوف . . فما قيمتها ؟ . .

وقد يحتال عليه البحارة من أجل أن يرتدى واحدة من أردية القراصنة الأجانب التى يستولون على سفنهم فيأبى قائلا :

– لست منهم ، ولا أنا مثلهم . . إنما أنا ضدهم ، وثائر عليهم . . إنهم لصوص البحر ، والبر ، والبشر ، هم يحولون عالمنا إلى سوق كبير للرق والعبودية . .

أصبح « رحمة » معروفاً فى الخليج ، بل فى كل أرجاء الوطن العربى ، وصار قوة يحسب لها حسابها . . السفن الفارسية تعرفه جيداً ، وتخشاه وترهبه ، إذ تذكر معاركه معها فى البحرين ، وهو لا ينسى لها أبداً أنها سلبته نور عينه ، وسفن العثمانيين تضيق به وبالشكاوى العديدة التى تصلها ضده ، وتعتبره وريث الأمير مهنا ، ولابد أن يلقى نفس مصيره ، فيشنق فوق أعلى سارية فى سفنه ، والسفن الأوربية لا تأمن على نفسها منه إذا هى شقت عباب المياه من « بومباى » عبر الخليج ، وهو فى واقع الأمر شوكة فى حلوقهم ، تحول بينهم وبين السيطرة على هذه البقعة الملاحية الهامة ، وهم مستعدون لبذل أى

شيء للتخلص منه ، وتدمير أسطوله . . أما عرب الجزيرة فقد رضى عنه كثيرون منهم باعتباره بطلا أسطوريًّا ، وفارساً من فرسان المياه ، استطاع أن يكيل للأعداء الصاع صاعين ، وتمكن من أن يوقع بهم أكثر من هزيمة تناقلت الدنيا كلها أخبارها . . ولكن هؤلاء لا يملكون حمايته وهو فى عرض البحر ، ولا يستطيعون الدفاع عنه وعن سفنه لو أنه لجأ إلى إحدى الموانى . . لذلك شعر « رحمة » بالتعب وهو يواجه كل هؤلاء الأعداء ، ويُطارَدُ من الجميع ، ولا يجد من يقف بجانبه ويسانده من أجل عروبة المياه والأرض حول هذا الخليج الرهيب .

* * *

- تُرى ، هل يحمل هذا الضيف عرضاً جديداً ؟ . . هل حدث الربان الجرىء عن سفن جديدة فى عرض البحر يستطيع بحارته السطو عليها ؟ . . لقد ضاقوا بالبحر والقتال . . وهم يشعرون بأنهم يريدون شطًّا . . مرفأ . . ميناء . . هم يرغبون فى التخلص من الإحساس بأنهم ملاحون تائهون ، بلا أرض تأويهم . . بلا وطن . . خارجون على كل القوانين مطاردون فى البر وفى البحر . . ولا سبيل للاستقرار . .

هل يمكن أن يحمل إليهم هذا الرجل استقراراً ؟ . .

من أين أنت أيها العم ؟ . . انطق . . تكلم . . ربما عرفنا من

كلماتك ، لهجتك ، صوتك ، من أى أرض أنت . . وهل أنت رسول سلام أو نذير حرب ؟ . .

إنه طويل أسمر ، باسم ضاحك ، شامخ الرأس والأنف ، فى عينيه ذكاء ، ولكن الزمن ترك الكثير من التجاعيد على جبينه ، حتى أنك لتعطيه سنًّا أكبر من سنه . .

ولكن الرجل ظل يلوذ بالصمت ، يستمع إلى همس « رحمة » وقد يبتسم ، ويهز رأسه بالإيجاب أو الإعجاب ، وقد يبدى رأيه بإشارة رقيقة هادئة من يده . .

هذا الرجل الغامض أشاع كل هذه البهجة التى لا يدرون لها سرًّا ، ولا يعرفون لها سبباً . . لِمَ لا ينطق هذا الرجل الغامض ؟ . .

إن البحارة غير قادرين على تمالك أنفسهم . . إنهم يشعرون بحب استطلاع لا يقاوم ، لذلك راحوا يتمسحون فى « رحمة » ويدورون من حوله ، وهو مدرك تماماً لمرادهم ، فاهم كل الفهم مرماهم ، ولكنه ظل على صمته ، حتى انتهت السهرة ، وعندئذ استدعاهم إلى غرفته ليقدم إليهم ضيفه . .

. . قال « رحمة » :

ضيفنا أيها الإخوة ليس من رجال البحر . . ولكنه بطل ابن بطل . . اسمه السيد محمد المحروق .

وأطرق الضيف خجلا . . وواصل « رحمة » حديثه :

أبوه السيد أحمد المحروقى قاوم نابليون ، وخاض هو المعركة بعد المعركة هنا على أرض الجزيرة العربية . .

– إذن هو من . . مصر . .

– نعم هو من مصر المحروسة . . من القاهرة . . من بلد النيل . . والأزهر الشريف . . سأدعه يتحدث . .

ابتسم الضيف ، وقال فى تؤدة :

أريد أن أعبر لكم عن سعادتى بوجودى بينكم . . إن شعاركم الذى رفعتموه « البحر الأخضر ينتقم للبحر الأحمر » هز وجداننا . . نعم ، ما من عربى فى مصر سمع هذه العبارة إلا وخفق قلبه بين ضلوعه . . إنه لرائع أن تذكروا أسطولنا الذى سيطر طويلا على البحر الأحمر ، وكان له مع البرتغال نضال سنين طوال . . وها أنتم أولاء تريدون أن تنتقموا له بعد قرون ثلاثة لم تكن لنا فى هذا البحر سفينة واحدة ، إذ سلبنا العثمانيون وإياكم كل شىء . . وقد يسألنى أحدكم :

– لماذا تحاربون من أجلهم ؟ . .

لقد جئنا لكى ننقذ الحرمين ، وننقذ أنفسنا ، جئنا لكى نؤمن سبيل الحجاج ، ونؤمن سبيل بلادنا للحرية . . عشنا طويلا فى ظلام

الاستعباد العثمانى ، وقد آن الأوان لكى يعلو شأن هذا البلد العربى – مصر – ليتبوأ مكانه بين بلدان العرب والمسلمين . . لقد أفقدنا السلاطين العثمانيون الكثير . . أفقدونا ديننا وخلقنا ، عروبتنا وبلادنا ، استقلالنا وحريتنا ، علمنا ومالنا ، زراعتنا وصناعتنا – وآن لنا أن نسترد كل هذا . . وليكن ذلك عن طريق « القوة » ، إنها وحدها فى هذا الزمان المعيار الحقيقى للمكانة . . نحن نريد أن نوطن مركزنا ، ونقوى هيبتنا إزاء هؤلاء الذين أذلوا بلادنا طويلا ، لذلك أعلنا الجهاد . .

سكت السيد محمد المحروقى قليلا ، قبل أن يواصل حديثه قائلا :

– وعلى شاطئ خليج عربى آخر ، يقابل هذا الخليج ، شرقاً ، ظللنا لشهور طويلة نعد أنفسنا للجهاد والقتال . . لقد وصلت إلى السويس قوافل الإبل ، كانت ثمانية عشر ألف جمل ، كل منها يحمل قطعاً صافية من الخشب نقلتها من حى بولاق بالقاهرة . . وقبل ذلك بشهور كانت هذه الأخشاب قد حملت إلى ترسانة بولاق من جميع أنحاء مصر ، ومن أرض سورياولبنان ، من أجل إنشاء عمارة بحرية ، وهناك اجتمع كل صناع المراكب فى بلدنا ، لقد مضى علينا اثنا عشر جيلا لم نصنع خلالها إلا الزوارق بعد أن أخذ سليم الأول كل صناعنا المهرة إلى الآستانة . . ولكننا نعرف السفن والبحر ، وشواطئنا أطول

من شواطئ الجزيرة البريطانية نفسها ، وشعبنا يرث فى قلبه خبرات خمسة آلاف عام . .

ففى قديم الزمان أبحرت سفننا المصنوعة من البردى ومن الخشب فى البحرين : المتوسط والأحمر ، وسيطرت أساطيلنا عليهما سيطرة كاملة . .

وخلال أشهر قليلة استطاع عمالنا المهرة أن يصنعوا سفناً رائعة ، ثمانى عشرة سفينة حملتها الإبل ليتم تركيبها فى السويس ، ونزلت إلى الخليج كى تستوعب الجنود والمؤن والذخيرة والمهمات لستة آلاف من المشاة . . وحملتهم إلى ينبع ثغر المدينة المكرمة ، فى حين سار ألفان من الفرسان عبر سيناء المقدسة من السويس إلى العقبة ، وانطلقوا على شط خليج العقبة ، ثم شاطئ البحر الأحمر ، وعند (ينبع) التقى المشاة والفرسان . . وزحف الجيش يعلى كلمة الله ، ويفتح طريق الحج ، حتى تم النصر له ، وها هى ذى طلائع قواتنا قد وصلت إلى هنا ، إلى شط الخليج العربى ، ودارت سفننا حتى وصلت إليكم . .

هتف « رحمة » :

– مرحبا بها فى خليجها . . وخليجنا . . لقد ناضلت سفنكم ضد البرتغال ، حتى أن البرتغاليين لم يستطيعوا استعمار أرضنا والسيطرة على خليجنا إلاّ بعد أن خلى لهم الجو ، ولم يبق لمصر أسطول فى البحر الأحمر .

ابتسم الضيف القادم من مصر وواصل حديثه :

وعندما وصلت طلائعنا إلى أرض الخليج تجاه البحرين لم تكن لدينا أى رغبة فى القتال ، فإن مهمتنا هنا محدودة ، وليست لنا أغراض ولا أطماع ، كل ما نريد هو أن يقوى ركزنا تجاه السلطان ، لتصبح لنا حرية فى الوطن وفى العمل .

قال « رحمة » :

– إن أصداء انتصاراتكم قد هزت الجزيرة ، وأعلنت البحرين عن رغبتها فى التعاون معكم . . ونحن أيضاً لكم ، وبكم . .

قال الضيف :

– لقد شعرنا من أول لحظة أن لنا فيكم نعم العون . . فإنك أيها الربان الكويتى الجرىء ، والملاح العربى المحارب وقد وقفت ضد الأجانب . . ضد العثمانيين والفرس . . ضد الأوربيين الغرباء . . ثم إنكم أيها البحارة الشجعان ساعدتمونا كثيراً فى قتالنا هنا فى هذه الأرض المقدسة التى سالت عليها الدماء طاهرة عزيزة . تروى قصصا بطولية خالدة . . وقد آن الأوان لكى أعلن لكم وأذيع عليكم قرار قائد قواتنا فى الجزيرة العربية :

« يعين رحمة بن جابر حاكماً على الدمام ومسئولا عن منطقة الأحساء » .

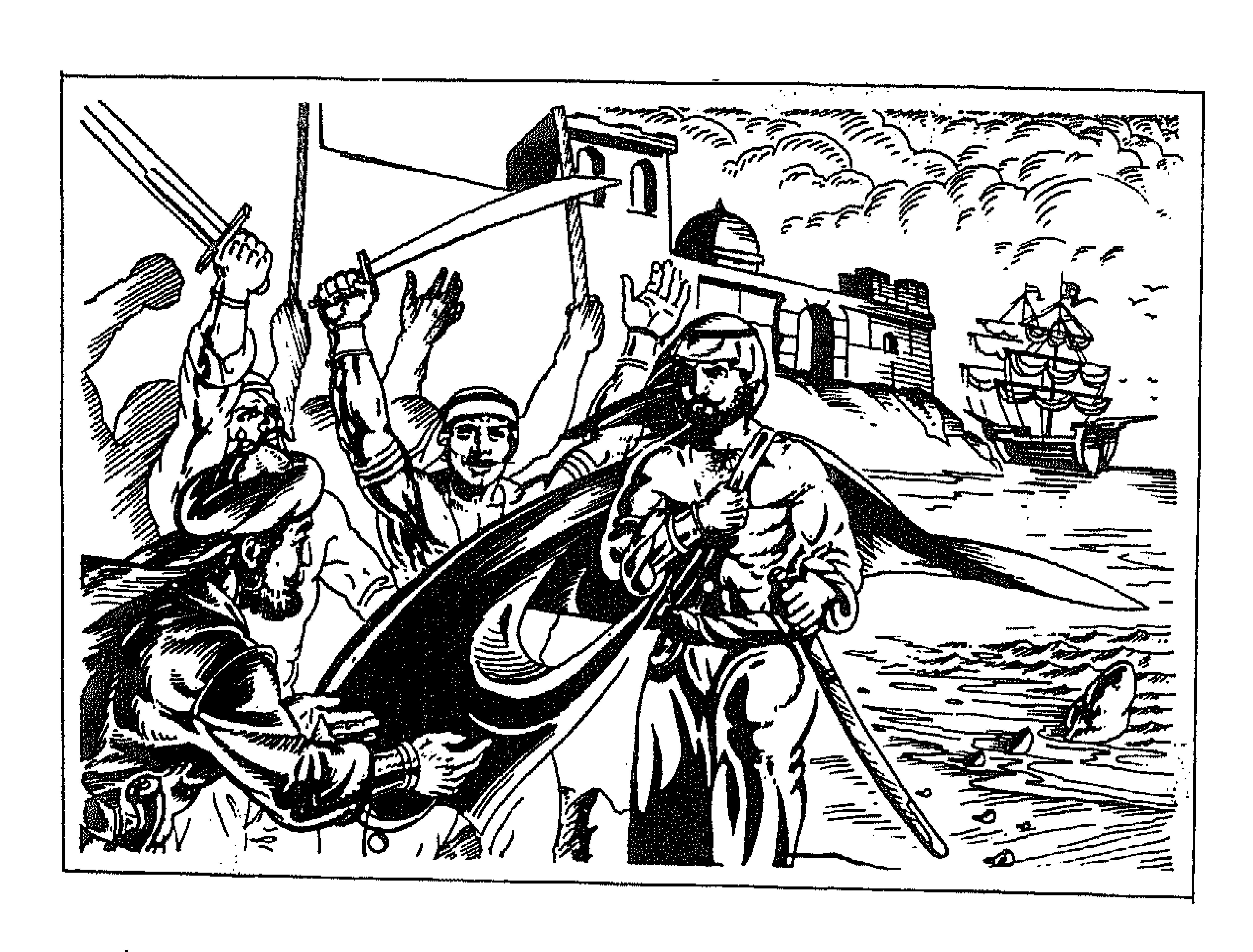
هتف رجال « رحمة » وصفقوا طويلا . . سعداء بالنبأ الجديد . . ورقص البحارة وغنوا للصباح . .

أخيراً أصبح لهم شط . . مرفأ . . ميناء . .

* * *

ورست سفن « رحمة » عند الدمام . . وأنزلت الأعلام السوداء ذات الجمجمة والعظمتين ، ورفعت علماً أخضر ، تزينه النجوم البيضاء . .

ونزل البحارة . .



وبدأت الحياة تدب فى الميناء ، وبدأ البناء . .

وكان أن أقام « رحمة » وصحبه قلعة كبيرة حصينة لتكون مقرًّا لقيادته . . ها قد أصبحت « عيناً » من الأعيان يا « رحمة » . .

ها قد تحقق شطر من النبوءة الثالثة للعراف الهندى . .

وبقى شطر « ويغلبك الماء » . .

لا ، لن يحدث . . إنك سوف تطلق الماء ، ولن تعود إليه بعد أن أصبحت حاكماً ، وصاحب قلعة ، تطل من نوافذها على سفنك الرابضة فى الميناء ، ومن فوقها رجال أشداء أقوياء ، لا قِبل لأحد بهم . .

*　*　*

ختام

رست سفينة الربان الجرىء ، « رحمة بن جابر » على ميناء الدمام ، وتنفس الصعداء ، وابتسم فى سعادة . . كم يريد أن يخلد للراحة بعد كل هذه المغامرات المتوالية التى واجه فيها الموت مئات المرات ، والتى كلفته كل سنى طفولته ، وصباه ، وشبابه ، ورجولته ، وقد أصيب خلالها كثيراً حتى أنه لم يعد فى جسده شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح . . وهو برغم كل ذلك لا يتمنى أن يموت فى فراشه ميتة الجبناء ، ولا يود أن يجد نفسه داخل قلعته كالجرذ الصغير ، حبيساً سجيناً ، يجرى بين الغرف والردهات ، ينتظر المصير الرهيب . . إن الراحة لا تعنى أن يغمض عينه الباقية عما يجرى حوله ، فهو يعلم أن كثيرين يريدون أن يثأروا منه لأنفسهم ، ويرغبون فى أن يوردوه مورد الهلاك ، هو وسفنه الرابضة فى الميناء تغطى صفحة المياه ، دون أن يستطيع أحد أن يحصيها عداً ، فقد أقبل البحارة من كل صوب وحدب ينضمون إليه بسفنهم ، ويعلنون ولاءهم له بعد أن سيطر

أسطوله سيطرة كاملة على الخليج ، وصار يتقاضى الإتاوات من سفن الأتراك والفرس والهنود ، ويغرق سفن إنجلترا وفرنسا وهولندا .

وقد ضاقت أوربا بهذا الذى يجرى فى دنيا البحر . فى البحر المتوسط سيطر على غربه أسطول الجزائر ، وعلى شرقه أسطول مصر . . أما البحر الأحمر فعاد من جديد لسيطرة مصر تغدو سفنها من السويس إلى ينبع وجدة ، وتعود بأنباء انتصارات جنودها . . وهاهم أولاء العرب فى الخليج يرهبون سفن هولندا والبرتغال ، بل سفن إنجلترا وفرنسا . . «القواسم» فى الجنوب ، «وبنوكعب» فى الشمال و«رحمة» من الدمام يقطع الطريق على كل سفينة عابرة . . وصار يتعين على إنجلترا أن تعمل ، وأن تأخذ بالمبادرة فهى تريد أن تثبت سيادتها للبحار ، وهى صاحبة الهند – أكبر درة فى تاج الإمبراطورية التى أصبحت لاتغرب عنها الشمس – والطريق إليها مهدد الآن بهذه الأساطيل .

وبدأت إنجلترا تفكر . . أين تبدأ ضربتها ؟

كانت رأس الخيمة هى عاصمة « القواسم » وأكبر معاقلهم ، وضربها يهدد القراصنة فى كل مكان . . ثم هى بلدة الربابنة العظام والملاحين الكبار أبناء ابن ماجد ، وترك أمورهم تستشرى على هذه الصورة سوف يدفع غيرهم إلى مواصلة ضرب سفن الإمبراطورية ،



وقطع الطريق إلى الهند . . ثم إن لدى إنجلترا مبررًا أخلاقيًا ، ولافتة ترفعها أمام الرأى العام العالمى : إنها تكافح القراصنة ، إنها تضرب الرق . . دون أن تقول للعالم إنها تريد أن تحتكرها لنفسها . .

تحرك أسطول بريطانى ضخم تجاه رأس الخيمة عام ١٨١٩ بقيادة « وليم كير » وانهالت قذائفه على الميناء الكبير لتدك قلاعه ولتهدم دوره ، ولتدمر منشآته ، ولتقتل سكانه بلا رحمة . . ثم أنزل الأسطول جنوده ينهبون ويسرقون ويبيدون . .

ووصلت هذه الأنباء إلى « رحمة » فى قلعته . . كان قد أقام فيها وهو يشعر أنه ضيف ، ويحس بأنها ليست له ، ولاهو لها . . لذلك لم تتغير حياته كثيرًا عما كانت عليه . . ظل على زهده فى ملبسه وطعامه ، ظل على تواضعه مع بحارته ورجاله ، ظل على حبه للبحر ، والسفن . . لذلك توقع أن يكون هو الهدف التالى لسفن أوربا ، وأدرك أن الدور عليه ، لذلك استدعى إليه ربابنة السفن ، وقادة الرجال ، وتناقشوا فيما يجب عليهم أن يفعلوه لمواجهة هذا الموقف . .

قال أحدهم :

— لماذا لاندع البر؟ . . نحن هنا هدف ثابت . .

وقال آخر :

— نعم ، فى البحر نناور ، ونتحرك ، ونهرب . .

وحسم الثالث المناقشة بقوله :

– هل تذكرون ماجرى لنا فى « رحماتاتيا » .. لانريده أن يتكرر ..

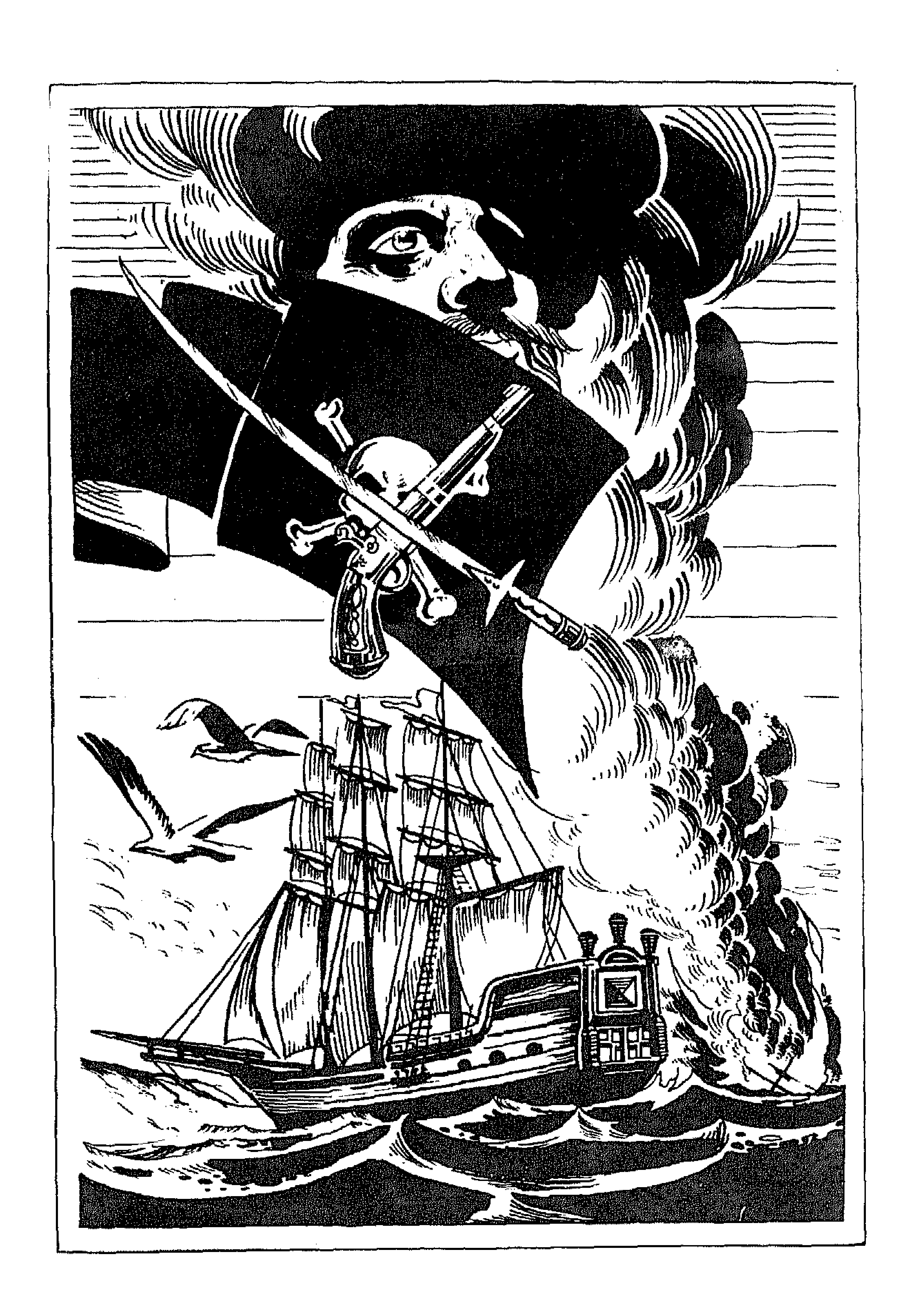
وجاءت هذه الكلمات فى لحظة كان الربان الجرىء قد ضاق فيها بالبر ، وضاق البر به ، لذلك وقعت على وتر حساس من نفسه ، ووجدت لديه صدى طيبًا « إنه يشعر دائمًا أن البحر يناديه ، وهو شديد الحب له ، شديد التعلق به ، وليس فى يده إلا أن يستمع إلى هذا النداء ، وأن ينصاع له .. لقد تعود على أن ينام تهدهده أمواج البحر وتشنف آذانه الرياح ، لذلك كان يصيبه الأرق وهو فى حجرته الكبيرة الجميلة الهادئة فى القلعة ، ويشعر بالملل إذا طال به البقاء فى هذا المكان ، فكان يهبط إلى زورق من زوارقه ، ويظل يجدف إلى أن يهده التعب ، ويعود ليلقى برأسه على الوسادة لينام فى عمق .. وكثيرًا مايحن إلى عرض البحر ، فينطلق إليه يشارك رجاله بعض أعمالهم البحرية ، ويهاجم السفن ، ويأسرها ليضمها إلى أسطوله ، ويعود مستريحًا ، هادئ النفس ليسلم نفسه لفراشه ..

وقد ابتهج « رحمة » لقرار الربابنة .. يجب أن يكونوا مستعدين .. لابد أن ينقل كل شىء إلى سفنه ، فإذا ماضربوا القلعة استطاع أن يفلت هاربًا .. وعرف الأعداء هذا ، وكانوا يرقبون الميناء

من عرض البحر ببوارجهم الضخمة وسفنهم المصفحة ، ويدبرون المؤامرات من أجل القضاء على « رحمة » وبحارته وسفنه . .

وذات يوم جاءت « رحمة » أنباء عن سفن قادمة من الهند تحمل أموالا طائلة ، وبضائع كثيرة . . وكانت أنباء مضللة . . ولكنه خرج إلى عرض البحر ، وقد تناثرت على مسافات بعيدة مايزيد على خمسين سفينة ترصد مساره ، وترقب خط إبحار سفنه فضلا عن أنها كانت قد اتفقت مع قائد بحارة سفينته على أن يجنح بها بعيدًا عن بقية مراكبه ، من أجل أن تنفرد به سفن الأعداء . . ولم يدرك « رحمة » ذلك إلا بعد فوات الوقت ، وعندما شعر أنه محاصر حاول ببراعة أن يضرب إحدى السفن التى تقطع عليه طريق العودة للشط ، وقد استطاع أن يغرقها ، غير أنها استغاثت بزميلاتها ، فأقبلت قوافل من الأسطول تحيط به وتضربه بنيران مركزة عنيفة شديدة ، دون رغبة من جانبها فى إغراقه ، بل كانت تريده حيًّا . . وأحس أن المعركة خاسرة ، وأن خيانة قائد بحارته قد أوقعته فى هذا الكمين ، ومع ذلك استمر يقاتل ببسالة منقطعة النظير ؛ فهو يضرب بقوة ، ويتحمل الطلقات العنيفة ، ويصاب أكثر من مرة ، ويتحمل إصابته ، ويتحامل على نفسه ، ويمضى فى القتال فى ضراوة الأسود إذا استُثيرت . .

ولم تكن المعركة تسير فى صالحه ، ورأى أن الدائرة ستدور عليه ،



ويوشك أن يقع أسيرًا فى يد أعدائه . . عندئذ تذكر ماحدث للأمير مهنا . . وبيريك . . وكابتن كيد . إن أعداءه يريدون أن يشنقوه ، ويمثلوا به ، ويأبى هو أن يعطيهم الفرصة ، إنه من أُمّة يموت أبناؤها ويستشهدون ، ولايستسلمون . . لقد كان دائمًا أبدًا يخلى سفنه من كل قطعة قماش بيضاء ، لأنه آل على نفسه ألا يرفعها أبدًا فوق سفينة منذ رفعها قبطان السفينة التى أنقذته من الغرق ، وأقسم ألا يستظل بها طيلة عمره . . إنه يعلم جيدًا أن البحر أرْأف به من أعدائه ، فليكن طعامًا لأسماكه ، وحيتانه . . إنه لن يستسلم طالما هو على قيد الحياة . .

ومرت حياة « رحمة » كشريط سريع أمام بصره وهو يعد الذخيرة والبارود لأمر فى نفسه . . تذكر أعمامه وأخواله . . تذكر طفولة تقاسمتها الفروسية والبحرية . . وتذكر نبوءة الرجل الهندى صاحب اللحية الكثة والعينين اللامعتين ، والوجه الأسمر . . وكلماته . .

– يا « رحمة بن جابر »

عين ماء تقودك إلى الماء ،

تفقد العين وتسود الماء .

تصبح عينًا ، ويغلبك الماء . .

لقد تحقق كل مافى النبوءة وبقيت فيها كلمتان تتحققان الآن.. عام ١٨٢٠ بعد مايزيد على خمسة وأربعين عامًا . . « يغلبك الماء »

و « رحمة » يرفض أن يغلبه الأعداء ، ويرضى بالهزيمة من الماء . .
وفجأة ذكر حلمه الذى رآه فى طفولته . . . لقد تكاثر الصبيان ضده ،
كل منهم يأخذ بتلابيه من ناحية ويتجاذبونه بينهم ، فأصابه الدوار
وشعر كأنما هو وسط أمواج بحر تتقاذفه . . إنه يحس بالدوار ، ولكن
صياح الديك وصوت أمه لن ينقذوه الآن ، ولن يوقظوه من نومه بل
إنه سوف ينام طويلا . . طويلا . . طويلا .

لقد عمد « رحمة » إلى نسف سفينته بكمية من البارود
والديناميت ، وتطايرت أشلاؤها ، وأشلاؤه ، ومات ميتة أسطورية
مثل حياته ، وقدم للناس تراجيديا يونانية « عنيفة » .

* * *

وشهدت مياه الخليج بعد أيام ، واحدًا من رجال البحر . . إنه
« خليل » صديق عُمْر « رحمة » وقريبه . . إنه يستقل سفينة تمخر
عباب الماء ، وفى أعماقه قبر « رحمة » وعلى سطح الماء تناثرت الأزهار
التى ألقى بها « خليل » وهو يذرف دمعه على الربان الجرىء ،
ويقول . .

– رحمة الله على « رحمة » .

* * *

المراجع

- تاريخ الكويت – للشيخ عبد العزيز الرشيد
- أضواء على تاريخ الكويت – قدرى قلعجى
- الخليج العربى – قدرى قلعجى
- الخليج العربى – أرنولد ولسون
- الخليج العربى – جان جاك بيرى
- الاستعمار فى الخليج الفارسى – د . صلاح العقاد
- تاريخ الحركة القومية فى مصر – عبد الرحمن الرافعى
- حديث السندباد القديم – د . حسين فوزى
- ألف ليلة وليلة

وذلك عدا دوائر المعارف ، وقصص ادجلد ألن بو (الحشرة الذهبية) وروفائيل سباتينى (كابتن بلود) ، وجيمس بارى (بيتر بان) وروبرت لويس ستيفنسون (جزيرة الكنز) .

رقم الإيداع		١٩٩١ / ٢٨٦٦
الترقيم الدولى	977 – 02 – 3203 – 0	ISBN

١ / ٩١ / ١١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

أولادنا

مجموعة طريفة يختص كل كتاب منها بقصة واحدة تفيض بالمغامرات والحوادث العجيبة المملوءة بآيات البطولة والشجاعة والإقدام.

ظهر منها :

١ - عمرون شاه
٢ - مملكة السحر
٣ - كريم الدين البغدادى
٤ - آلة الزمن
٥ - الأمير والفقير
٦ - كتاب الأدغال
٧ - بينوكيو
٨ - نبوءة المنجم
٩ - روبن هود
١٠ - دون كيشوت
١١ - ايفنهـــو
١٢ - جزيرة الكنز
١٣ - كنوز الملك سليمان
١٤ - سجين زندا
١٥ - الزنبقة السوداء
١٦ - مون فليت
١٧ - مقبرة الأفيال
١٨ - الربان بلود
١٩ - تيودورا
٢٠ - أوليفرتويست
٢١ - دافيد كوبر فيلد
٢٢ - في مهب الريح
٢٣ - الفخ الذهبى
٢٤ - عودة المحارب
٢٥ - حصان طروادة
٢٦ - نساء صغيرات
٢٧ - توم سوير
٢٨ - الأربعة الذين سرقوا الزمن
٢٩ - الربان الجرىء
٣٠ - العم نعناع
٣١ - أم حنان